SP. COL.
889.927
A6554

مختارات الإذاعة

مطالعات

عباس محمود العقاد



إهداء ٢٠٠٧
ورثة الفنان/ حامد سعيد
القاهرة

ﻫ : ٦١٤٩٠

مختارات الإذاعة

مطالعات

عباس محمود العقاد



الرسول في كتب الغرب الحديث



حديثنا الليلة الى حضراتكم عن الرسول في كتب الغرب الحديث ٠

والمصطلح عليه أن العصر الحديث يبدأ في الغرب من منتصف القـــرن الثامن عشر : عصر الحرية والعلم والثورة على القديم ٠

ومفتاح كل سر من أسرار ذلك العصر المضطرب هو هذه الكلمة : كلمة الثورة على القديم ٠٠٠ فقد كان لهذه الثورة أثرها في آراء المتكلمين من أبناء ذلك العصر عن نبي الاسلام عليه السلام ٠

كان أنصار التجديد يعلنون الثورة على الجامدين من رجال الدين ، ومنهم من كان يوارى ويوارب فيتخذ لهذه الثورة أسلوبا غير الأسلوب الصريح ، وهكذا صنع فولتير في المسرحية التي كتبها باسم « محمد » وقال فيها كل ما أراد أن يقوله عن رجال الدين في عصره ، كأنه يتكلم عن نبي الاسلام وأئمة المسلمين ٠

ولم يشأ فولتير أن يهجم على سلطان رجال الدين في الغرب هجمـــة صريحة ، وكان يهمه عند كتابة تلك المسرحية أن يعلن آراءه ولايتعرض من جرائها للسخط والحرمان ، فاتخذ لها ذلك الأسلوب المنحرف ، ولم يكترث لحقائق التاريخ ولا للأدب في الخطاب ، ونسب الى النبي عليه السلام أمورا كان يريد أن ينسبها الى الجامدين من رجال الدين في عصره ، فلم يخف قصده على العارفين ، ولامه هؤلاء على التوائه ، وعلى نفاقه وريائه ، وكان من هؤلاء اللائمين نابليون الكبير في حديثه مع الشاعر الألماني جيتي فانه أنكر تلك الصورة الشوهاء ، وقال انها لاتصدق على محمد ٠٠ ان محمـدا لرجل عظيم ، ولايجمل تصوير العظماء بهذا الأسلوب ٠

ويعتبر كلام فولتير عن الرسول نموذجا للصراحة المبرقعة في الحملة على انصار الجمود ، وقد كان كل كلام عن الرسول من هذا القبيل ، يجمع بين الرياء والجهل بحقيقة الاسلام ٠

ثم انتهى القرن الثامن عشر واقبل القرن التاسع عشر بحالة نفسية وحالة فكرية غير تلك الحالة : اقبل بمعرفة أوفى وحرية أصرح وأقوى ، فمن تكلم عن محمد عليه السلام فانما كان يتكلم عن علم لم يكن ميسوراً للغربيين قبل ذلك ، اذ كان العارفون منهم باللغة العربية وباللغات الشرقية عامة قليلين، وكان المنقول من كتب الدين الاسلامي نادرا مشوها محصورا فى المشتغلين به من الباحثين المتفرغين للدراسات الشرقية • فلما أقبل القرن التاسع عشر كثرت هذه الكتب ووصل العلم بها الى غير المستشرقين ، وأصبح الاطلاع عليها بدعة محمودة بين طلاب الثقافة والتبحر في الاطلاع ، فظهرت الكتابة عن الاسلام ، وعن نبى الاسلام ، على نهج جديد •

اذا كان فولتير نموذجا للكتابة الغربية عن الرسول فى القرن الثامن عشر ، فان توماس كارليل هو النموذج الصادق لهذه الكتابة فى القرن التاسع عشر ، وقد كانت كتابته عنه متسمة بسمة الاعجاب والانصاف ، لاينتظر من فيلسوف غير مسلم أن يكتب خيرا منها عن نبى الاسلام ••• ويكفى للدلالة على موقف كارليل أنه أراد أن يختار مثلا واحدا للبطولة فى صورة النبى ، فلم يجد أحدا أحق بالاختيار فى هذا المقام من محمد عليه السلام ، وكان من همه أن يفند كل شبهة شائعة عن الدعوة الاسلامية فى مبدأها ، فقال ان الذين يزعمون ان محمدا نشر دعوته بالسيف لايتصورون مايقولون . فقد كانت دعوة محمد دعوة رجل واحد أمام قوم مجمعين على تكذيبه ، وليس أعجب من صورة رجل واحد يحمل السيف ليقنع به كل منكريه •

ولقد تقدمت دراسة التاريخ فى القرن العشرين ، وتتبع الأوربيون أصول حضارتهم فعرفوا أنها مدينة بالقسط الوافر للحضارة الاسلامية ، وأن عصر العرب فى الأندلس كان من العصور الذهبية فى تاريخ القارة الأوروبية ، وعمل رد الفعل عمله فكان أشد الناس اعجابا بالحضارة العربية أولئك الكتاب الذين نشأوا فى الأندلس نفسها ، وفتحوا عيونهم حيث بلغ التعصب على العرب غاية مداه • فاذا قرأت كاتبهم الأشهر « بلاسكو ابانيز » لمست فى كلامه حزنا عميقا على زوال الحضارة العربية من الأندلس

وحتينا واضحا الى العهد الذى ازدهرت فيه تلك الحضارة ، وقد ختم بعض فصوله عنها قائلا : « ولت ساعة العلم وانزوت الفكرة الأسبانية فى غياهب الظلمات ، حيث ترتعد بردا فى عزلتها المضنية وتخبو شيئا فشيئا الى أن تموت ، وان بقيت منها بقية فهى تلك التى تنصرف الى الشـــعر والمسرح والجدل الدينى ، مذ كان العلم يفضى بصاحبه الى نار الحريق ... » .

هذه النظرة الى تاريخ الحضارة ، والى المقارنة بين الحضارات ـ قد كان لها أثرها فى تعديل الميزان الذى يوزن به رسل الأديان ، وأولهم رسول الاســــلام .

فمن كتب عن محمد عليه السلام فى القرن العشرين ، علم أنه مطالب ـ بحكم العصر الذى يعيش فيه ـ ان يقول شيئا يوافق العلم ولا ينسب الى التعصب والجهالة ، فلا يزن محمدا بميزان غير الذى يزن به الرســــل والأنبياء من سائر الملل والدعوات ، ومن لم يكن من هؤلاء الكتاب مرتزقا بالدين فهو يخجل من التحامل على صاحب دين كبير لغير سبب ، الا أنه وله على غير دينه ! وهو يبرىء عقله من وصمة التعصب الضيق بمحـــاولة الانصاف ما استطاع .

بل وجد من أولئك الكتاب من يثيره أن يسمع أحدا يعيب النبى وان كان ذلك العـــائب من أبناء القرون الوسطى ، ففى احدى روايات برنارد شو رجل يعيب على النبى انه « راعى ابل » فيجيبه صاحبه ان أتباع ذلك النبى قد تعلموا منه درسا غير الذى تعلمته من دينك ، فانهم يسمون تلاميـــذ السيد المسيح بالحواريين ، وكان فى وسعهم أن يقولوا عنهم انهم جماعة من الصـــيادين !

واذا قلنا ان المرتزقة بالدين هم وحدهم الذين يصرون على بضاعة العيب والتجريح ، فليس معنى ذلك ان رجال الدين الأوروبيين جميعا ينـــكرون فضل النبى ويستبيحون العيب فيه ، بل معناه انهذا الخلق الشائن محصور فى طلاب الرزق باسم الدين .. أما العلماء الدينيون فمنهم أناس يحاسبون السنتهم واقلامهم ويجتهدون فى قول الحق على حسب طاقتهم ، وقد كتب

أحدهم الدكتور بوكيه Bouquet كتابا عن الأديان المقارنة فقال عنه « انه نشر فى الشرق مثلا أعلى للحكم وللأخلاق الانسانية أوسع وأنظف وأحدث وأقوى من أمثلة الدولة البيزنطية » ... ثم قال : « وان الحكم على شخصيته أيضا ليتطلب الانصاف من أولئك الذين ينظرون اليها بعين الغرض . فان الأخبار التى لاداعية للشك فيها تصوره لنا فى صورة رائعة من الجمال ، بوجه مليح فطن ، وعينين سوداوين نفاذتين ولحية سابغة ، ورصانة فى القول وبلاغة صارمة ، مع عطف فى أطيب حالاته ، وحنان على الأطفال »

وينبغى أن نذكر أن هؤلاء الكتاب غير مسلمين ، فهم لايقولون فى النبى كل مايقوله المسلم ، ويكفى منهم أنهم لاينكرون كل ما يقوله عن تعنت أو مكابرة بغير دليل .

وظهر فى هذه السنة كتاب عن الاسلام لمؤلفه « الفريد غليوم » أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة لندن ، قال فيه عن نبى الاسلام : « علينا من المبتدأ أن نقرر أن محمدا كان واحداً من أعلام التاريخ العظماء وكان يقينه الغالب انه لا اله الا الله ، وانه يدعو الى ملة واحدة ، وكانت قدرته على التدبير بين المشاكل المعقدة التى كانت تواجهه قدرة خارقة بغير مراء ، فما استطاع عربى بقوة الجيوش والشرط والدواوين أن يجمع شمل قومه كما فعل . فان قيل ان العالم الاسلامى عند وفاته كان عالما صغيرا بالقياس الى دولة خلفائه ، فالجواب على ذلك أن عوامل الشقاق جميعا كانت كامنة فى بلاد العرب أيام حياته فلم يظهر منها شىء حتى فارق الحياة » .

ثم قال بعد استطراد وجيز : « كان رجلا لم يخذله الرأى السديد قط ، ومن أنكر عليه ذلك فانما يلج فى انكاره على الرغم من الدلائل البينة على رجاحته وفطنته وفهمه الصحيح للآخرين ولما كان يجرى فى العالم من حوله » .

ومن كتاب التصوف الدينى فى العصر الحاضر بول برنتون Brunton صاحب كتاب النفس العليا وكتاب الحقيقة الباطنة الذى صدرت منه ثمانى

طبعات ، وفى هذا الكتاب يضرب المثل لمن يعملون فى الدعوة الى الحق فيقول « ٠٠ ان كثرة العدد لا تهم ، وأولئك الأقوام الغافلون ليس لهم حساب . فانما هم زيادة فى حجم الانسانية ليس الا ٠ وكل ماكانت له قيمة فانما يفعله ويهتدى اليه فى أول الأمر فئة قليلة ، وقد كان محمد يقول عن السيدة خديجة زوجته انها صدقتنى حين كذبنى قومى ، فانه مضت عليه ثلاث سنوات وليس له من الأتباع غير ثلاثة عشر ٠٠٠ ثم انتشرت دعونه بين الملايين » ٠

وفى الكتاب الذى أصدرته مطبعة جامعة برنستون عن الأديان العظمى يقول ادوارد جورج صاحب الفصل المخصص للدين الاسلامى : « ان ايمانه الذى لايتزعزع برسالته الالهية وصدق دعوته يقيمه مثلا فريدا فى التاريخ . وان اعتقاده بالغيب الذى هو لباب الكثير من وحيه لهو اللحمة التى تنسج حولها بشارته وعظاته ، ومن ثم اصبحت رسالة السيادة الربانية العليا ضرورة عاجلة ملحة ، وتلك نواة تلك الرسالة العلوية الموحاة الى محمد ، وبغيرها لايتأتى لنا أن نفهم الوحدانية فى الاسلام » ٠

كتب هذا الفصل بروح مستمدة من الشرق ، واجتمع فيه ومن عشره فصول أخرى كتاب وسط عن ديانات الصين والهند واليهودية ومذاهب المسيحية الكبرى : وهى الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية . وكلها مكتوب بأسلوب كهذا الأسلوب ٠

ومن أحدث المترجمات الى اللغة الانجليزية كتاب العالم البلجيكى هنرى بيرين Pirenne عن محمد وشارلمان ، وعنوان الكتاب يشير الى مضمونه ، ومضمونه يتلخص فى بيان أسباب الانقلاب الأوربى الذى ينسب فى أوربا الى شارلمان ، ولكن المؤلف يرى أن الفضل فيه لمحمد واتباع محمد ، ويقول فى فاتحة الجزء الثانى منه : « ان الفتح العربى الذى اوقع ما اوقع من القلق فى أوربة وآسية لم تكن له سابقة ، ولا تقارن سرعته بغير السرعة التى قامت بها دولة المغول بقيادة أتيلا ، وجنكيز خان ، وتيمورلنك ٠٠ لولا أن هذه الدول زائلة ودولة الاسلام باقية ، فلم يزل للاسلام أتباعه فى كل بلد دخله الخلفاء الأولون ، وقد كان ذيوعه كذيوع البرق معجزة حقيقية ٠٠ » ٠

وبعد ، فليس في الوسع احصاء كل ما كتب عن النبي في مصنفات الغرب الحديث ، ولكننا نتحرى أن نقتبس أحدثه وأدله على اتجاه الكتابة العصرية في سيرة الرسول الكريم ، وفيما تقدم من الأمثلة دلالة كافية ، ومنها نعلم أن احترام الكاتب لقلمه وكرامة علمه يضطره الى اجتناب اللغو الذى شاع في القرون الماضية ، ولايزال يشيع فيما يكتبه المرتزقة من أدعياء الـــدين والتبشير بالدين ، وانه مامن أحد كتب عن الرسول وتوخى امانة العلم الا ردد فيه قول القرآن الكريم : « انك لعلى خلق عظيم » .

الحالات النفسية
بعد منتصف القرن العشرين

لما انتصف القرن العشرون ، أى فى سنة احدى وخمسين ، وجه كثير من المجلات أسئلة الى طائفة من العلماء والمفكرين والساسة وغيرهم من ذوى الآراء ، وفحوى هذه الأسئلة : ماهى الصفة التى غلبت على النصف الماضى من القرن العشرين ؟ أو ماهى الصفة البارزة التى تصفون بها الخمسين السنة الماضية ؟

وقد أختلفت الأجوبة كما هو المنتظر فقال بعضهم انها عصر الطيران . وقال آخرون انها عصر الذرة ، وقال غيرهم انها عصر الحروب العالمية ،وقالت فئة غير قليلة انها عصر التحليل النفسانى أو عصر النفاسيات على العموم .

ولم يخطىء أحد من المجيبين ، فان تلك السنين الخمسين يمكن أن توصف بجميع هذه الصفات ، وكلها صواب ، ولكن على درجات .

فالطيران لايزال فى عصره أو فى ابان عصره ، والذرة تابعة للتقدم فى العلوم الطبيعية ولاتزال فى مقدماتها ، والحروب العالمية قد اتسعت فى النصف الأول من القرن العشرين ولاشك ، ولكنها وجدت فى كل عصر مضى . وغاية ماهنالك أن محيط السياسة العالمية يتسع أو يضيق على حسب الأوضاع الجغرافية والسياسية .

أما أصدق هذه الصفات في رأينا فهى صفة الدراسات النفسية ومانفرع عليها من التحليلات والتعليلات .

فهذه الدراسات قد شاعت شيوعا لم يسبق له مثيل قبل أوائل القرن العشرين ، وقد انتصف هذا القرن وهى على غاية الشيوع بين المختصين بها وغير المختصين ، وأوشك كل من يعرف القراءة أن يتحدث فى سياق كلامه عن العقد النفسية ومركبات النقص وعن علل الكبت والحرمان . ثم مضت سنتان ودخل الاهتمام بهذه الدراسات فى طور جديد ، يصح أن

نسميه طور الاعتدال واعادة النظر ، أو طور المراجعة التى تنتهى بنبــذ الكثير من اللغو والفضول ، وتتجه بالبحث على سنن مستقيم مأمون العثرات

كانت الدراسات النفسية فى أول القرن العشرين بدعة ، فانتشرت كما ينتشر كل بدعة ، وزادها انتشارا أن العصور الغابرة أهملت جانب البواعث النفسية وافرطت فى اهمالها ، فكان التعليم يجرى على قواعد آلية ، تعتمد على الذاكرة دون غيرها من الملكات الذهنية ، وكانت القوانين تصدر وتسرى على الناس كأنهم مجموعة متساوية متشابهة من المادة الصــماء ، وكانت سياسة الأمم على هذا النحو من الجمود لاتعنى كثيرا بالبواعث والغايات ، الا ما اتفق عفوا بغير قصد من الحاكمين أو المحكومين .

فلما ابتدأت الدراسات النفسية فى أوائل القرن العشرين ، قفزت فى طريقها قفزا سريعا ، لانها وجدته خاليا يتسع لكل طارق ، ولم تلبث أن شملت كل ناحية من نواحى البحث فى التعليم والتربية والتشريع وآداب الاجتماع ، ونشأت دراســات نفسية لأطوار الأمم ، ودراســات نفسية للاجرام ، ودراسات نفسية للطفولة وللمراهقة وللشباب ولما بعــده من الأعمار ، ودراسات نفسية للحيوانات العجمــاء ، وحق لبعضهم أن يقول متهكما : لم تبق الا دراسات نفسية للجمادات ..

ومازالت هذه البدعة تسرى وتستفيض حتى بلغت أوجها من الشيوع ، وخرجت من كونها دراسة فى معاهد العلم والعلاج الى كونها لغطا فى المجالس والأسواق وعلى كل لسان .

وقد ضاعفت شيوعها قبل منتصف القرن أنها امتزجــت بالكلام عــلى الشئون الجنسية ، وعلى الأهواء والعواطف التى تربط بين الجنسين ، وهو موضوع اذا فتح لم يغلق له باب .

لقد أفادت مباحث علم النفس فائدة جليلة فى كل ناحية من نواحيها : أفادت فى التعليم وفى التشريع وفى الأدب والفلسفة ، ولعلها افادت فى السياسة على الأقل فى فهم أطوار الجماعات والطوائف التى تشــتغل

بالشئون السياسية ، ولكنها جمحت حتى أفلت عنانها من الأيدى القادرة عليه ، وخيف بعد ذلك أن تضر وتتلف حيث كانت تصلح وتفيد ·

من أضرارها البليغة أنها كادت أن تجعل الكرة الأرضية كلها مستشفى للأمراض العقلية أو للأحوال النفسية الغريبة، فهاهنا جيل مريض ، وهاهنا أمة مريضة ، وفى كل مكان نزعات شاذة وأخلاق معتلة ، وأسرار وراء جميع الأعمال والنيات ·

وما من أحد يداخله هذا الوهم يجتهد فى اصلاح عيوبه ، لأنها فى ظنه أصيلة متعمقة فى ضميره ، ويحسب كل مخطىء أو مجرم انه معذور لا يؤاخذ بخطئه او جريمته ، لأنها حالة مرض وليست بحالة تخضع للارادة والتفكير

سمعت بعضهم يقول عن صاحب نعرفه : انه مصاب بعقدة نفسية ، ويعلل ذلك بأنه يميل الى الألوان البنية ·

قلت له : واذا كان خاليا من العقدة النفسية فالى أى لون يميل ؟

فحار فى الجواب ، وراح يذكر اللون الأبيض تارة واللون الأخضر تارة أخرى ، ولو ذهبنا مذهبه لكان لكل انسان لا يختار اللون الأبيض أو اللون الأخضر مصابا بعقدة تحتاج الى علاج ·

هذا الشطط فى « النفسانيات » يتأنى رويدا رويدا فى العصر الحاضر وتبدو دلائل هذه الأناة فى الكتب الحديثة التى يصدرها المختصون ، ومن أمثلتها كتاب « الصواب والخطأ فى تطبيق علم النفس » للدكتور ايسنك Eysenck . وكتاب « النفسانيات اليوم » للدكتور ستافورد كلارك Stafford Clark . وكتاب « العلم والحياة الأخلاقية » لماكس أوتو Max Otto وغيرها من أشباه هذه المؤلفات ·

وليس المقصود بالأناة والروية اهمال علم النفس وانكار الأمراض النفسية بغير استثناء ، وانما المقصود هو التفريق بين الحالات الطبيعية

والحالات العادية ، فان الحالات العادية تختلف كثيرا وكلها مع ذلك طبيعية ، فلا يلزم من اختلافها أن تدل على أمراض وعلل تتطلب العلاج ٠

مثال ذلك أن نسأل : ما هو الوزن الطبيعي للانسان ؟٠٠

هل هو قنطار واحد ؟ هل هو قنطار ونصف ؟ هل هو قنطاران ؟

يوجد أناس بجميع هذه الأوزان وجميعهم طبيعيون ، فليس اختلاف الوزن عادة بالأمر الذى يستلزم حتما أن يكون الاختلاف عن مرض وشذوذ

ومثاله أيضا أن نسأل : ماهي القامة الطبيعية للانسان ؟

يوجد بين الناس تفاوت في القامات يحسب بالقراريط أو الأشبار ، ولايقال عن فئة منهم انهم شواذ لأنهم متفاوتون ٠

ومنذ أسابيع قرأنا عن طبيب أديب أنه بلغ الثمانين كتب تجاربه في الحياة ومنها تجاربه في علم التشريح ، فاذا هو يلخص الدرس الأول في نتيجة واحدة وهى : أن الحالة التي تسمي بالحالة العامة هى أندر الحالات : كلفه أستاذه أن يبحث عن عرق في جسم انسان فطال بحثه عنه في الموضع الذى تحراه على حسب الصورة ، فنبهه الأستاذ الى خطاه ، وقال له : ان الحالة التي تشبه الصورة العامة هي أندر الحالات ٠

وهكذا يمكن أن نسأل عن الانسان الطبيعي من الوجهة النفسية من هو : هل هو الذى يميل الى الألوان البنية أو الألوان البيضاء ؟ هل هو الذى تتساوى لديه جميع الألوان ؟ هل هو الذى يرى الألوان جميعا بقوة واحدة؟ هل هو الذى يراها على اختلاف في قوة الرؤية ؟

هؤلاء كلهم بحكم العادة طبيعيون ، وانما النادر الشاذ هو الذى يطابق الأوصاف التي نسميها غالبة عامة ، فهو ، اما نادر الوجود أو غير موجود ٠

والحمد لله على السلامة ...

الحمد لله على سلامة النوع الانسانى من تلك العلل التى راجت باسم العقد النفسية ومركبات النقص وآفات الكبت والحرمان ، فقد يختلف الناس فى الأذواق والأخلاق كما يختلفون فى الملامح والقامات ، وهذه هى الطبيعة ، وهؤلاء المختلفون كلهم طبيعيون .. أما العقد النفسية وماشابهها فهى موجودة ولاريب ، ولكنها لاتوجد فى أحد كما توجد فى الذين يفسرون بها كل خلق ، وكل عادة ، ويبحثون عنها فى كل انسان وفى كل مكان .

مؤلفون شرقيون في لغة غربية

من قديم الزمن تعود الغربيون أن يقرأوا كتب الشرق ، وأن يرجعوا الى المؤلفين الشرقيين في العصور الماضية ، على سبيل الاستطلاع أو على سبيل الاستفادة في الشئون التاريخية .

الا أننـا في العصر الحاضر ، بل في السنتين الأخيرتين . أمام ظاهرة جديدة لم تعهد من قبل ، وتلك هي اهتمام الغربيين بالاطلاع على مؤلفات للشرقيين من الأحياء ، يكتبونها باللغات الغربيـة وتدور موضوعاتها على شئون حاضرة أو على شؤن اجتماعية ، ليس الاطلاع عليها من قبيل الاطلاع على التاريخ القديم .

ولا تحسب هذه المؤلفات الشرقية فئة نادرة . فانهـا تزداد وتتكاثر . ومنها في اللغة الانجليزية وحـدها خمسة ظهرت في نحو سنة . وهي على ترتيب حداثتها في الظهور كما يأتي :

كتاب ألفه فتاة سوداء من نيجيريا في افريقيـة الغربيـة . موضوعه القصص والمواعظ الشعبية .

وكتاب ألفه مدرس تركي عن قرية من قرى الأناضول في العصر الحاضر .

وكتاب ألفه مصري من الصعيد عن قرية مصرية في اقليم أسوان .

وكتاب ألفه سوداني عن القضية السودانية في عهد الثورة المهدية .

وكتاب ألفه جومو كنياتا زعيم قبائل « الماو ماو » المشهورة في افريقية الشرقية

وكلها قد كتبها مؤلفوها باللغة الانجليزية ، ماعـــدا الكتاب عن قرية الاناضول . فانه مترجم عن اللغة التركية بعد ظهوره على الأثر

* * *

أما الفتاة السوداء من نيجيريا فاسمها « فيبان أبابيما » في الســابعة والعشرين من عمرها ، تعلمت في وطنها ثم اتمت تعليمها في جامعـــــة « سانت أندرو » باسكوتلاندة . وعادت الى وطنها فاشتغلت فيه بالتدريس

وكتابها تدور على القصص والمواعظ الشعبية . كتبته باشراف أستاذها في لغة انجليزية سليمة . وجاءت فيه بمنتخبات من النوادر العـــامة لا تخلو من المغزى . ولا يتسع المقام للافاضة في ترجمتها ولكنا نكتفي على سبيل المثال باثنتين منها .

فقصة المرأة والرجل والنخلة تقابل عندنا قصة حواء وآدم والجنـــة . وفحواها أن الله لما خلق النخلة عهد الى المرأة بأن تجني ثمارها . ولكن المرأة كانت تتسلق النخلة ثم تهبط منها كلما سقطت منها احدى الثمار عـــلى الأرض خوفا من التقاط المارة لها . فنحاها الله عن هذه الوظيفة . وعهد بها الى الرجل . فاستطاع هذا أن يجني الثمرات في خطات وجيزة . لأنه لم يكن يهبط الى الأرض لالتقاط كل ثمرة تسقط منهـــا . واستفاد الصـــعفاء الذين يحتاجون الى تلك الثمرات ولا يستطيعون التسلق على النخيل .

والقصة الثانية قصة الديك وسر امتيازه بالألوان الزاهية . ومغزاها أن الهمـــة الظالمة تطلق لسان الأبكم الذي لايطلقه الخوف ولا الألم . فقد ولد لأحد الملوك طفل أبكم فاعلن في شعبه أنه يمنح من شعبه ويعلمه الكلام جائزة سنية . فأخذه صيادو السباع والعصـــبة عسى أن يخاف حتى يرتاع فيستغيث ويتكلم . وأخذه طلاب الغرائب عسى أن تنطلق عقـــدة لسانه من الدهشة والاستغراب . ولكنهم لم يفلحوا . وانما أفلح الديك حتى صاح به متهما اياه بالسرقة . فبكى وأقسم أنه بريء . وخلع الملك على الديك تلك الكسوة الزاهية من الريش الجميل

ويظهر أن الغناء والتورية المجازية عما قوام البـــلاغة في تلك القصص لأنها عند ترجمتها تفقد كثيرا من معناها ومن سر شيوعها بين القبائل التي تناقلتها عن أسلافها .

* * *

والكتاب عن القرية التركية ألفه مدرس يسمى محمود ماكال في الرابعة والعشرين من عمره ، وترجمه الى الانجليزية سير ويدهام ديدز ، وتناول

فيه المؤلف عادات القرويين فى الأناضول ، ولم تخل رواياته من المبالغة فى بعض الأحيان ، ولكنها على الأغلب فكاهة لا مبالغة اختلاق وافتراء

* * *

وخلاصة الحكايات والأخبار عن قرية الأناضول أن الفلاح التركى لم ينفرنج ولم يستسلم لدعوة المجددين الذين يريدون الانقطاع عن القديم ، فلا يزال منهم من يبيع أرضه ليجمع من ثمنها تكاليف الحج الى مكة المكرمة. ولا يزال منهم من يتبرك بالشيوخ ويستمع الى امام المسجد وهو يشرح فرائض الدين فيحوقل ويستعبر ، ومن هذه الفرائض كما يشرحها الامام أن المرأة تجب عليها الصلاة اذا حان موعدها ولو كانت فى حالة المخاض !

أما المبالغه الظاهرة فمن أمثلتها قصه الفتاة التى تذهب الى لقاء خطيبها مبرقعة فى الظلام ، فلا تميز بين خطيبها وبين منافسه ، الذى سعى اليها فى مكانه . ويستغرق اللقاء بينهما ساعات دون أن تعرفه بصوته ومضامين حديثه ، وهكذا سائر المبالغات عن مختلف العادات والموروثات

* * *

أما الكتاب عن القرية المصريه فقد ألفه الدكتور حامد عمار وصدر فى مجموعة الكتب التى تنشرها مؤسسة التربيـة فى جامعة لنـدن ، وأدار موضوع على نشأة الطفل فى قرية سلوى من مركز أدفو باقليم أسوان .

ونحن قد نشأنا فى الاقليم ، وعرفنا مطالب المعيشة فيه ، وعلاقات النسب والقرابة بين أهله ، ورأينا أضرحة الأولياء ، التى يلوذ بها كباره وصغاره ، ويتوجهون اليها بالرجاء كلما اصيب احدهم فى نفسه أو فى ماله أو فى بنيه ، فنشهد أن الأستاذ الفاضل قد تحرى الدقة غاية الدقة فى وصف قريته وسرد أخبارها وتصوير عاداتها ، وبعض هذه العادات خاص بالاقليم وبعضها عام فى جميع الأقاليم المصرية مع اختلاف يسير فى تفصيلاته . ولكنها فى جملتها مثال صالح للتعريف بالقرية المصريه وتسجيل تاريخها الحاضر . وقد تفهم وجوه المشابهة ووجود التخصيص من نماذج الأمثلة التى تتردد على ألسنة أهلها ، وهذه نتف منها بحروفها .

اللى ما عندوش ما يلزموش

ولد بطنى يعرف رطنى

اللى يعمل قنطرة لازم يستحمل الدوس

الدهب يحتاج للنخالة

اللى يشيل قربة تنقط عليه

النسب نسب ، وان صح يبقى أهلية

ان لقيت غادر فى طريق وادى قل له الطريق معاك

اللى مالوش كبير يشترى له كبير

ينفعك دهبك دس ، وولدك من ضهرك بس ، وطورك من بعرك

هـــذه نماذج من أمثله القرية ، وهى مصرية مصطبغة بالصبغة المحليـــة فى لهجتها ولا يدخل عليها تحوير كبير فى لباب تفكيرها . ويحسن أبنـــاء الأقاليم بتصوير ما استطاعوا من قراهم على هذه الصورة ، فانه عمل لازم للحاضر والمستقبل ، لزومه للتاريخ .

* * *

وكتاب الأستاذ مكى عباس عن مسألة السودان يدرس تاريخ السودان من عهد الثورة المهدية ، ويعرض شئون السياسة على حسب الضرورة فى سياق التاريخ ، وهو دراسة معززة بالوثائق تنتهى ببحث مسهب فى سياسة الفصل بين شمال السودان وجنوبه . وهى السياســـة التى أراد بها الحكم البريطانى أن يعامل الجنوب كأنه جزء من أوغنـــده ويفصل بينـــه وبين الشمال فى مسائل التعليم والثقافة ، وفى مسألة اللغة والعقيدة . وقد ناقش المؤلف أصحاب هذه السياسة فى الحجج التى يتذرعون بها لتنفيـــذ سياستهم ، وهى حجة الحماية للقبائل الفطرية ، وحجـــة التخلف فى الوعى السياسى والدراية العامة ، وحجة الاختلاف فى الجنس واللغة ، وحجة البعثات الدينيـــة التى تخشى على نتائج محاولاتهـــا وجهودها فى الجنـــــوب ، فكان

المؤلف موفقا في مناقشة هذه الحجج التي زالت أسانيدها جميعــا في العصر الحاضر ، اذ لا محل للحماية مع انقضاء عهدالتجارة بالرقيق ، ولا معنى لابقاء الجنوبيين على تخلفهم وتأخرهم لأنهم تخلفوا وتأخروا في الأزمنة الماضية . وليس من الانصاف أن يعول الجنوب على الشمال في تكاليف الادارة وحفظ الأمن ونشر التعليم ثم ينعزل عنه كأنه شعب أجنبي يعمل على الانفصال منه سنة بعد أخرى ، ودعاوى المبشرين ليست أحق بالرعاية من مصالح الوطن ومقتضيات الوحدة الحكومية والقومية

قال الأستاذ المؤلف في ختام بحثه أن الرجاء معقود بحكمة أبناء الجنوب وأبناء الشمال أن يعالجوا هذه المشكلة بالحل الذي يحقق مصالح الجميع .

* * *

أما كتاب كنياتا زعيم الماو ماو فهو تطبيق عملي لموضوع الكتاب

ومن حضرات المستمعين من علموا أن الزعيم الافريقي قد درس علم الأجناس البشرية على الدكتور مالنوسكي ، وهو من أكبر أساتذته في هذا الزمن ، ثم ألف هذا الكتاب ليكون رسالته التي يستحق بها اجازةالجامعة. ثم عاد فخلع ملابسه الأوروبية ولبس الجلد والخرز كأبناء قومه . وأصر على الايمان بسلطان الأرواح وأسرار العبادات في بلاده ، فهو في حياته تطبيق محسوس لعلم الأجناس ودراساته العملية .

وليس الكتاب بالجديد ولكنه أعيد في طبعة جديدة بعد الثورة في افريقية الشرقية ، وأخذ طريقه بين عشرات الكتب التي تخرجها مطابع الغرب حول هذه الشئون

ترى : ماذا وراء هذا الاهتمام البالغ بشئون الشرق ومجتمعاتهفي الآونة الحاضرة

ليكن وراءه ماوراءه . فالأمر المحقق أنهدليل علىشعور الغرب بأنالشرق قد تغير ، فعسى أن يعلموا أنه لم يتغير ليتأخر . ولــكنه تغير ليمضي في طريقه الى الأمام .

الاستعمار والتبشير يتضاربان

من الحقائق المفروغ منها أن الاستعمار والتبشير حليفان قديمان : يسبق التبشير الى البلد الشرقى ويتلوه الاستعمار ، ويحدث كثيرا ـ ان لم يكن دائما ـ ان التبشير يذهب الى البلد الشرقى بعلم الدولة المستعمرة ، مزودا بمالها موعودا بحمايتها مكفولا برعايتها ، فاذا نجح التبشير ومضى فى طريقه بسلام فذلك مايبغيان ، واذا أصيب أحد المبشرين بما يسوءه فذلك مايبغيه الاستعمار على الأقل ، لأنه يتذرع بهذه الاصابة للاحتجاج والمطالبة بحماية الأرواح والحريات ، ولا تنتهى المسألة بغير غنيمة سياسية أو اقتصادية تجنيها الدولة على حساب الدين ..

ان التبشير والاستعمار حليفان غريبان ، وصديقان متناقضان ، فلا غنى لهما عن النفاق والخداع ، ولابد لكل نفاق وخداع من يوم ينكشف فيه .

ان التبشير يدعو الى الدين ، والدين المسيحى بين الأديان الكبرى يحض على المحبة والمسالمة وينهى عن الطمع والكبرياء واحتقار الضعفاء والمساكين

وليس فى الاستعمار غير نقيض هذه الخصال : ليس فيه محبة بل عدوان، وليس فيه نهى عن الطمع والكبرياء ، بل هو الطمع والكبرياء سافرين غير مستترين ، وكله احتقار صريح للضعفاء وللمساكين

وأى اختلاف بين نقيضين ابعد من هذا الاختلاف ؟

اى اختلاف بين عدوين لدودين أبعد من هذا الاختلاف بين هذين الحليفين المتلازمين ؟

أى اختلاف أشد فى طبيعته من الاختلاف بين التبشير والاستعمار ؟

لقد كان التبشير يخدم الاستعمار ، أو يمضى معه ، فينجح بعض النجاح لأنه يصطنع الاحسان ويتبرع بعلاج المرضى ويقنع الجهلاء من الوطنيين بقدرته على العلاج والمؤاساة ، وانه أعلم بالطب وأقدر على الخير من السحرة والكهان والمشعوذين ·

كان ذلك قبل أن يشعر الوطنيون بالوعى القومى وظلم السيادة الأجنبيه ، فلما شعروا بوعيهم وتململوا من وطأة السيادة الأجنبية عليهم تحرج موقف التبشير بين الطرفين : تحرج موقف الدعاة الدينيين بين المغصوبين وبين الغاصبين ، وحاروا فيما يصنعونه بين طغيان الاستعمار وشكاية أبناء البلاد ، فان قالوا لأبناء البلاد أن الطغيان حق ضاعت مكانتهم وانكشف رياؤهم وحبطت دعوتهم ، وان قالوا للمستعمرين ان الطغيان باطل وان الشكاية منه عادلة فقد اختلف الحليفان وانقسم المعسكر فى الميدان

لقد تكشفت هذه النقائض فى ميدان واسع من أهم ميادين التبشير والاستعمار ، وهو الميدان الذى يحيط بافريقية الشرقية وافريقيه الجنوبية . ويمتد أحيانا الى افريقية الوسطى ·

وقعت الواقعة بين الحكومات وهيئات التبشير من ناحية ، ووقعت بين هيئات التبشير على اختلاف المذاهب من ناحية أخرى ··

وانعقدت المؤتمرات التبشيرية مؤتمرا بعد مؤتمر ، ولما تصل الى وفاق ··

فالمبشرون التابعون لمذهب الاصلاح الهولندى يعلنون الفوارق بين الأجناس والألوان وينادون بتقديس هذه الفوارق لأنها من حكمة الله ، ويقيمون للسود كنائس منعزلة يتعلم قساوستها فى مدارس غير المدارس العامة ، ويحاربون المبشرين التابعين للكنيسة الكاثوليكية لأنهم يخالفون هذه الخطة ويسمحون للسود بحضور الصلاة مع الأوربيين فى مكان واحد · ومما يلاحظ أن الخصومة بين المبشرين المختلفين انما هى خصومة سياسية لا تمت الى العاطفة الانسانية بسبب كبير ، لأن المبشرين المصريين على

التفرقة بين الألوان والأجناس هم أتباع الحكومات الترنسفالية التى تستعمر البلاد وتسخر السود ، أما المبشرون الآخرون فلاعمل لهم ولاهم من المنتفعين بسلطات الحكومات · أما المبشرون الآخرون فلا عمل لهم ولا هم من المنتفعين بسلطان الحكومات ، بل هم معرضون هناك للمقاومة والاضطهاد من وراء ســـــتار ·

وقد جنى الاستعمار على التبشير بهذه الخطه . وجنى التبشير على نفســـه بمجاراة الاستعمار ، وليس أدل على هذه الجنايه من الأناشيد التى تروج اليوم بين قبائل الماوماو ، وفيها يقولون عن اله البيض ان البيض جاءوا به معهم ليعينهم على اغتصاب بلادنا ، وانهم يوصوننا بأن ننظر اليه فى السماء . فاذا نظرنا اليه فى السماء نظروا هم الى أرضنا وتسللوا اليهـــا فاغتصبوها ·

وقد نشبت العداوة بين السود الذين استجابوا من قبل لدعوة المبشرين وبين اخوانهم الذين رفضوا تلك الدعوة . ولكن الاصرار على التمييز بين الألوان باسم الدين سينتهى الى توحيد أبناء اللون الواحد على اختـــــلاف المذهب والعقيدة . وبخاصـــة لأن هؤلاء السود المنبوذين حديثو العهـــد بالتحول عن عقائدهم الأولى ·

ومن الكتب الكثيرة التى صدرت حديثا فى هذا الموضوع كتاب عنوانه « قبل العاصفة الافريقية » لمؤلفه جون كوكسون الذى عنى بالمســــــألة الدينية بين المسائل المشتبكة فى القارة السوداء . وفى كلامه عن ديانـــة قبائل البانتو يقول : « ان المبشرين يتقدمون تقدما عظيما ولكن على الورق ليس الا . ومامن شك فى نجاحهم بعض النجاح . غير أن الصابئين عن دينهم من السود قليلون . وبعضهم يصبأون خدمه لمصالحهم الشخصية ·· وقد نجح المسلمون أكبر نجاحهم فى أوغنـــده وكينيا وتنجنيقـــا ، ولم ينجحوا مثل هذا النجاح فى بلاد الكنغو البلجيكيه · أما فى افريقية الجنوبية حيث أكثرهم من الهنود المهاجرين فان عددهم ينمو كثيرا مع استفحال مشـــكله الألوان والأجنـــاس · وفى أقاليم خط الاستواء الفرنسية يأتى المسلمون أصلا من افريقية الغربيه وتخوم الصحراء ، وان الحقيقة التى تنجلى عن تمكين الاسلام لقبضته فى تلك الأماكن لتكذب قول القائلين أن أتباعه لايستميلون

أحدا الى دينهم في افريقيه الوسطى • وقد اطلعت منذ سنة على كراسه مكتوبة باللغتين الفرنسية والانجليزيه تضاف الى غيرها من الأدلة على مثابرة الدعوة الاسلامية وتبين الفضائل التي يستعدها الانسان من اتباع دين النبي محمد . وقد ألح على في أخذها عديقة لبيولدفيل تاجر غني من نيجيريا يسمى مكدونالد يعتزم السفر بالطيارة الى مكة لأداء الفريضه »

ولا تنقطع الكتب والرسائل التي تعالج مسألة التبشير أو تعالج العقبات التي تعترضه في الأقاليم الافريقية . وأغرب مافيها أنها تتغافل عن العقبة الكبرى من هذه العقبات . وهي كراهة الشعوب للاستعمار وتكذيب الواقع لدعوى المستعمرين وحلفائهم من المبشرين حدام الدول من وراء الستار ، وأيسر ماعندهم أن ينسبوا فشلهم لتعددالزوجات وسماح الاسلام به وتحريمة في جميع المذاهب المسيحية ، ومنهم من أجاز لأبناء القبائل السود أن يجمعوا بين زوجتين لتوهمهم أن الاسلام انما يجمع بين أبناء القارة الافريقية لاباحته تعدد الزوجات . وفاتهم أن الاسلام يحرم الخمر وهي شائعة مشتهاة بين القبائل المطريه ، وأن الحصول عليها سهل جدا من تعديد الزوجات . اذ كان الجمع بين الزوجات المتعددات ترفا لايتيسر لغير الأغنياء في كل مكان . وليس أسهل من معاقرة الخمر على الغني او الفقير •

وفي تاريخ القارة الأوروبية نفسها — وهي أقرب الى جماعات المبشرين — سوابق شتى تقنعهم بأن تحريم الخمر عقبه في طريق الدين تصد الراغبين فيه حيث لا يصدهم نظام الزواج . فان فلاديمير ملك الروس الذي فكر في تحويلهم من الوثنيه الى دين من أديان التوحيد ، قد عرضت عليه اليهودية — كما جاء في تاريخ بيزنطة — فأباها لأن اليهود ضعفاء متفرقون . وعرض عليه الاسلام فأباه لما علم أنه يحرم الخمر وقال للناصح أن الخمر لذة الروسي وليس في وسعنا أن نعيش بغير شراب » •

وعلى أن المبشرين قد يعلمون أن كراهة الاستعمار علة من علل الاخفاق المتتابع الذي يتعرض له التبشير في القارة السوداء ، ولكنهم لايريدون التصريح بهذه العقبة لسببين : أحدهما أنهم يستندون الى الدول المستعمرة

فى اقتحام بلاد الافريقيين ، وثانيهما أنهم يخافون أن تنقطع عنهم الاعانات والتبرعات اذا علم المتبرعون أن العقبة كأداء لاتزول ، وأن نجاح المبشرين مرهون بزوال الاستعمار وهزيمة المستعمرين ، ولا يرجى من المحسنين أن يتبرعوا بالمال ليشجيع التبشير مادام التبشير سعيا ضائعا ميئوسا من جدواه ، فلهذا يتعلل التبشير بالاسلام وتعدد الزوجات ، وينسى الطغيان وثورة الطبائع الانسانية عليه ، وسيجرب حيلته الجديدة بعد السماح للافريقي بأكثر من زوجة واحدة فيعلم مصيرها بعد حين ، أو هو يعلم مصيرها من اليوم الى الخيبة والفشل ولكنه يطيل الوقت ويتعلل بالتسويف ويستديم التبرع من المحسنين والرضى من السادة المتحكمين

والشيء الجديد فيما يكتب اليوم عن الاستعمار الافريقي وموقف التبشير منه أن محالفة التبشير والاستعمار فى خطر ، وانهما الآن فيمفترق طريق غير مأمون على هذه المحالفة المتناقضة . فاذا تقدم الاستعمار والتبشير معا سقطا وسقط عنهما قناع النفاق والخداع . واذا تقدم الاستعمار والتبشير مفترقين متنازعين ففي ذلك ضعف لهما وقوة لطلاب الحرية ودعاة النهضات القوية

ومن المغالطة أن تحال القضية الافريقية الى مناقشة فى تعدد الزوجات ، أو مناقشة فى تحريم الخمر وتحليلها ، فاذا تعددت الزوجات أو توحدت . واذا أبيحت الخمر أو حظرت ، فالمسألة بجملتها وتفصيلها باقية فى وضعها الذى لا يتغير . وهو الفاصل الواسع بين جانبين : أحدهما فى صف الشعوب وحقوقها والآخر في صف الطغيانوسلطانه ، وفي هذاالوضع الجلي فلتوضع في القضية الافريقية ومسائل الأديان والمذاهب ، ومسائل التبشير والاستعمار ٠

تضامن الشرق ونهضة إندونيسيا

مطالعتنا الليلة عن رحلة الى جزائر أندونيسية . ولعلها الرحلة السابعة أو الثامنة التى ظهرت فى كتاب كبير خلال هاتين السنتين .

وهذه الرحلة الجديدة ظهرت فى الأشهر الأخيرة خلال سنة خمس وخمسين (١٩٥٥ م) ... كتبتها سيدة انجليزية وعنيت فيها عناية خاصة بشئون المرأة ، وسمت الرحلة كلها « جمهورية أندونيسية » لأنها ساحت فى تلك البلاد بعد اعلان الاستقلال ، وبعد الغاء الاسم الذى كان يطلق عليها فى هولندة وهو اسم « جزر الهند الهولندية » .

وتعنى هذه السيدة ، واسمها دوروثى وودمان برد الأسماء فى الجمهورية المستقلة الى أصولها الوطنية ، مثال ذلك أنها تذكر اسم جزيرة بورنيو باسم كليمنتان . وهو على الأرجح اسم نوع من فاكهة « المانجو » تشبهه الجزيرة فى شكلها . وغير ذلك أسماء محرفة تعيدها الى أصولها فى لغة البلاد .

والكلام على أندونيسيه متشعب مستفيض . لأنها بلاد واسعة الأطراف قديمة التاريخ . كثيرة السكان يبلغ سكانها نحو مائة مليون . وتاريخها الحديث فى القرون الأخيرة أحفل التواريخ بأطوار الاستعمار الأوربى والمقاومة الوطنية ، لأنها ابتليت بأنواع الاستعمار التجارية والزراعية والثقافية والسياسية . واحتلها البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون والانجليز واليابانيون . وعرفت أطوار المستعمرين من القرن السادس عشر الى القرن العشرين .

تاريخ متشعب مستفيض . وليست الجوانب الجغرافية فى البلاد بأقل من جوانبها التاريخية تشعبا واستفاضة .. فحسبنا منها فى هذه المطالعة جانب جدير بالتنويه والمراجعة فى العصر الحاضر ، أو فى هذه السنوات على التخصيص ، ونعنى به الجانب الذى يدل على تضامن الشرق فى نهضته على تباعد الأقطار واختلاف اللغات والأحوال ، كما نعنى به فى تشابه الظواهر

الاجتماعية في هذه النهضة المباركة . وأظهرها تحرير المرأة وقيامهــــا بنصـــيبها في تعزيز الوطنية وتربية الجيل .

نهضة أندونيسية مثال رائع لما يستطيعه زعيم مصلح واحد ينبـــع في ناحية من الشرق . فيسري أثره الى الأنحاء الشرقية على امتدادها كأنهـــا أمة واحدة يجول فيها روح واحد .

ذلك الزعيم المصلح هو الأستاذ الامام محمد عبده رحمه الله . وعمله في بساط الشرق تسجله سائحة أجنبية وافدة على البلاد . لاتعرف شيئـا عن نهضتها ولا عن الأستاذ الامام قبل وفودها على تلك الجزر الشرقية واتصالها بآثار النهضة بين أبنائها الأحرار في كل مكان . وليست هـــذه السائحة مع ذلك بأول السياح الذين لمسوا آثار المصلح العظيم بين أمم الشرق من القارة الافريقية الى القارة الأسيوية . ومن شواطىء الأطلس الى حـــدود الصـــين .

تقول السيدة في كلامها على الاسلام والماركسية والوطنية « كانت آراء التجديد ـ على نطاق واسع ـ تحيا في المدارس الاسلامية . بين أناس قاموا بفريضة الحج الى مكة . وبصفة خاصة بين الشبان الأندونيسيين الذين عرفوا تعاليم المفتي المصري الشيخ محمد عبده ـ ذلك الامام الذي جعل القاهـرة مركز الفكر الاسلامي الحديث حوالى سنة تسعمائة (١٩٠٠ م) وأشرف في تلك السنة على اصدار مجلة تسمى المنار لم يزل أحد تلاميذه ـ الشيخ رشيد رضا ـ يصدرها بعد وفاته بسنوات، وكان المعلمون المصريون يزورون أندونيسية كما كانت طائفة مزدادة من أذكياء أندونيسية تتصل أول صلة لها بالعالم الخارجي في جامعة الأزهر بالقاهرة . حيث يبحثون مســـائل التوفيق بين الاسلام وعلوم العصر الحديث . وينظرون في الخرافات التي لبست بالاسلام زمنا واصابت شيوخه وقدها بالنكسة والجمود .. » .

الى أن تقول السيدة في ذلك الفصل « ان حركة محمد عبـــده كانت ترمي الى احياء المجتمع الاسلامي على قواعده المتجددة ولم تكن تعمــــل لاقامة الشرائع العرفية .. وكان لهذه الحركة شأن جليل في تاريخ الوطنية

الأندونيسية ، أسفر عن تأسيس الجماعة المحمدية سنة (١٩١٢ م) فكانت أوسع تعبير عن دعوة المصلح المصرى وتناولت فيما تناولته اصلاح عادات الزواج وعادات المآتم ، واضطلعت بانشاء المدارس المستقلة والمستشفيات والمكتبات ، وكانت رائد الاتجاه الى تعليم البنات ، وعملت على القاء الخطب المنبرية يوم الجمعة باللغة الوطنية فقربت الدين الى عقول الجماهير وساعدت هذه الجماعة ـ اى الجماعة المحمدية ـ على تطور الوعى السياسى والوطنى بما توفرت عليه من المزج بين الاسلام وبرامج الاجتماع والأخلاق . والوصل بين المسجد والتقدم الاجتماعى ، فكانت هذه الجماعة كما جاء فى كتاب أثر الحضارة الغربية فى المجتمع الأندونيسى لمؤلفه ورتيم Wertheim « تحس ـ وهى ترجمان الطبقة الوسطى ـ بعواطف دينها التقليدية على النحو الذى يحسه معظم الأوربيين نحو المسيحية ، ولابد فى البلاد المستعمرة من الاستقلال بالشعور عن السيد الأجنبى ، ولابد للأندونيسى من هذه الجماعه أن يدعو نفسه مسلما دون أن يخجل من هذه النسبة أمام الغربيين ، وأن يدين بعقيدته متفقة مع العصر الحديث ومع النزعات التى يطمح اليها باعتباره انسانا من أبناء زمانه » .

ولقد كانت نهضة الاصلاح كما قال هذا المؤرخ الغربى نهضة الكرامه والاعتزاز بالعقيدة بين الحركات العصرية . وكانت تقوم على الاستقلال بالرأى كما تقوم على الاصغاء الى الدعوة الصالحة حيث ينبغى أن يصغى اليها ، ومن شواهد هذا الاستقلال قيام فاضل من أبناء البلاد بانشاء صحيفه « المنير » لتوسيع نطاق الدعوة التى كانت تتولاها مجلة « المنار » ولم تلبث هذه المجلة حتى أصبحت بفضل محررها القدير الأستاذ « زين الدين يونس » أوسع الصحف العلمية انتشارا فى أندونيسية ، مع قيام محررها بادارة المدارس وتاليف الكتب الدراسية لتلاميذها .

* * *

ان هذا الأثر العظيم يذيعه كتاب الغرب فى هذه السنه .وهى السنة التى وافقت مضى خمسين سنة على وفاة الأستاذ الامام ، ووافقت اجتماع الأمم الأسيوية والافريقية فى مدينة من مدن أندونيسية ، فيتحقق بهذه المصادفه أصدق تكريم للمصلح الخالد فى ذكراه

وتمام الشعور بتضامن الشرق في نهضته ، ان نذكر هنا استاذ محمد عبده جمال الدين الأفغانى ، وتلميذه رشيد رضا ٠

جمال الدين يولد فى الأفغان فينتقل بدعوته الى مصر ، ورشيد رضا يولد فى لبنان فتصل رسالته ـ بهداية استاذه ـ الى أقاصى الشرق ويبعث المنار من هنا فيتبعه « المنير » هناك ٠ وتتلاقى الجهود فى غاياتها وآمادها على تعدد مصادرها ومنابتها ، وهذا هو التضامن الشرقى بأقوى معانيه ٠

* * *

وتقول صاحبة الكتاب بحق أن النهضة قد اثمرت ثمرتها لأنها وصلت الى المرأة فى خدرها ، فجعلتها قوة عاملة فى اصلاح الأسرة واقامة البيت على دعامة الحرية والكرامة

فلم تكد تتحرك الامة للمطالبة باستقلال الوطن كله حتى تحركت المرأة معها للمطالبة بتدعيم البيت والأسرة ، ولا أمة بغير أسرة ، ولا أسرة بغير ربة لها تعرف ما لها وما عليها ، وتطلب حقها كما تؤمن بواجبها ٠

ويندر أن تذكر النهضة النسوية فى أندونيسية دون أن يذكر معها اسم يقدسه أحرار الأندونيسيين والأندونيسيات ، وهو اسم السيدة «كارتينى» زعيمة الدعوة الى انصاف الزوجة والأم وتحريم العبث بتعدد الزوجات ، ولم تقصر هذه السيدة الكريمة جهادها على تحرير النساء بل جاهدت بما فى وسعها لتحرير الوطن كله من نساء ورجال ٠

تشير مؤلفة الرحلة الى رسائل هذه الأميرة التى كانت تكتبها لرفع الحجاب عن المرأة ورفع الحجاب عن حقائق النهضة الوطنية ، ومنها رسالة كتبتها الى زميلة فى الدراسة تقيم بهولندة تقول فيها : « ان كثيرا من الأوربيين يلتفتون بقلوب نافرة الى أبناء جاوة وهم يتيقظون فى تؤدة وأناة ، لأنهم ينظرون اليهم نظرة الأعلى الى الأدنى ، ولا يستريحون كلما التفتوا فرأوا رجلا أسمر يلوح عليه أنه صاحب رأس كرأس الرجل الأبيض وصاحب فؤاد كفؤاده ، غير أننا نمضى قدما ولا يسعنا أن نرجع القهقرى ، ولا يسع الهولنديين أن يردوا الزمن عن مجراه

وانني لأحب الهولنديين حبا جما واشكر لهم ما أفدناه منهم ولكنهم يضمون بينهم من يكرهنا لغير سبب الا أننا نجترىء على مساواتهم في العلم والثقافة .. وانني لأفهم الآن لم ينفرون من تعليم الجاويين ، فان الجاوى حين يتعلم لا ينحنى طوعا لكل أمر يهبط عليه من الرؤساء .

لقد نشأت الأميرة كارتينى في القصور فوصلت دعوتها الى الأكواخ ، وبعثت نداءها من وطنها فوصل الى أسماع غاصبيه ، وقد تركت بعدها سيدات من جيلها وفتيات من أبناء ذلك الجيل ، كلهن من جند الوطن الكبير في سعيه الى التقدم والحرية ، وكلهن من حماة البيت والأسرة ، ولا خوف على وطن يؤمن فيه البيت بمعنى الكرامة للأمهات والبنين .

* * *

لا نزال نعتقد ، ونزداد اعتقادا مع الأيام ، أن الشرق بخير مادامت له هذه الحيوية التي لاتموت ولا تستكين ، ومادام فيه هذا التضامن الذى تتجاوب به صيحة الحق من أرض الى أرض ، ومن قبيل الى قبيل .

وانصافا للشرق في ختام هذه المطالعة عن هذه الرحلة ، نعود الى المقارنة القديمة بين الشرق والغرب في كشوف العلم والاستطلاع .

لقد زعموا في الغرب ، وزعم معهم ببغاوات من الشرق ، أن الشرقيين لا يطلبون الكشف والاستطلاع الا للمنفعة ، وأن الغربيين دون غيرهم يطلبون الكشف والاستطلاع حبا للعلم بالمجهول ورغبة في توسعة الأفق الانساني من التفكير والشعور .

وأمامنا الرحلات التي يكتبها السائحون من الغرب في هذه الأيام ، ومن قبلها الرحلات التي كتبها السائحون من الشرق قبل عدة قرون .

ان ابن بطوطة وابن جبير والادريسي وابن بطلان لم يرحلوا في الأرض روادا للاستعمار ولا عيونا للدول ولا منطلقين في آثار السياسة حيث تتصل البلاد التي يسيحون فيها بهذه الدولة أو ينقطعون عن سواها ،ولكنهم

ساحوا فى الأرض ليعرفوها ويعرفوا بها ويستخبروا عن أهلها جلية الخبر كما يسأل الاخوان عن الاخوان ·

لاينسى الشرقيون أنهم سبقوا غيرهم الى كثير من المآثر كلما قيل لهم انهم مسبوقون فى كل شىء ، ولا ينسوا أنهم شرق واحد تتجاوب فيه الصيحة فلا تضيع مع الريح ، وأنهم بخير ما داموا من الذاكرين العاملين ·

الوطن الإفريقي - لمن هو؟

موضوعان يشغلان اليوم مكان الصدارة عند قراء الكتاب والقصة فى اللغة الانجليزية :

أحدهما موضوع الكلام على الكواكب السيارة والأطباق الطائرة والسفن التى تهبط من الفلك الأعلى ، والسفن التى ينتظر أن ترتفع اليه ٠

والموضوع الآخر هوموضوع الكلام على القارة الافريقية ، بكل مايشتمل عليه من مباحث جغرافية وتاريخية واجتماعية ، ومنها مايتراجع الى ما قبل التاريخ ويحسب القارة مهد النوع الانسانى كله ، أو مهدا من أقدم المهود ٠

وانها لمفارقة من مفارقات الزمن أن يقترن الكلام على الكواكب السماوية بالكلام على القارة التى كانت الى زمن قريب تسمى بالقارة المظلمة أو القارة السوداء ٠٠

وعلى حسب العادة فى الاقبال على موضوعات القراءة : يبدأ الطلب بالأصول ثم يتشعب حتى ينتهى الى الفروع ويستقصى الفروع الى أصغر التفصيلات ٠ فانحصرت الدفعة الأولى من المؤلفات فى المعضلات الكبرى والمباحث العلمية العويصة ، ثم تشعبت وتفرعت حتى وصلنا فى الأشهر الأخيرة الى المطبخ الافريقى والصنف المختار عند بعض القبائل البادية والمتحضرة ، وأصبحت السيدة الأوروبية تفاخر بقدرتها على « تحضير » هذا الصنف وتقديمه على مائدتها ، وتتكلم أو تكتب لترضى فضول القراء فى أمر من الأمور يتعلق بالقارة الافريقية بسبب من الأسباب ٠

وتشعبت الموضوعات الجدية كما تشعب غيرها فأصبحت الشخصية الافريقية الواحدة مستحقة فى رأى المؤلف والقارىء أن يوضع لها كتاب مستقل ٠ وليس من الضرورى أن تكون هذه « الشخصية » شخصية زعيم مناضل كزعيم الماوماو فى كينيا أو الكباكا المتمرد فى أوغندة ، بل يكفى أن

تكون للشخصية سمات افريقية ليتفرغ الكاتب أو الكاتبة لتاليف المطولات عنها ، فظهر في الآونة الأخيرة ، كتاب في ثلثمائة صفحة عن «بابا القارية» احدى نساء الرؤساء من قبائل النيجر ، وانقطعت السيدة مارى سميث — مؤلفة الكتاب — عدة أشهر في الرحلة والمقابلة وجمع المعلومات وتوجيه الأسئلة ، ثم انقطعت لتدوينه أشهرا أخرى حتى صدر من المطبعة في أحسن قالب وبالثمن الذى تباع به سير العظماء المشهورين التى يتهافت عليها القراء

ولانظن أن هذا الاهتمام يرجع الى مجرد الرغبة في الاطلاع ، بل نعتقد أنه يرجع الى رغبة أخرى غير نادرة بين الأوروبيين وبين الانجليز على الخصوص ، وهي رغبة التوطن في القارة الافريقية والانتقال من أوروبا ومتاعبها الى بلاد جديدة يقيمون فيها ويعمرونها تعمير من لاينوى التحول عنها ، الا أن تكون زيارة أو مراجعة في أعمال التعمير .

انهم يريدون القارة الافريقية وطنا دائما للاقامة المستديمة ، وهذه هي مشكلة « الوطن الافريقي » بعد الحرب العالمية الثانية ، ولم تكن كذلك حتى أواسط القرن العشرين .

ان المؤلفات التى تتابعت من المطبعة في الزمن الأخير تكشف عن هذه النية وتضع المشكلة صريحة في هذا الوضع الجديد .

والمشكلة هي : لمن يكون هذا الوطن الافريقي بعد هذا النزاع ؟

ان سكان افريقية ثلاث طوائف : اولها بطبيعة الحال أبناء افريقية الأصلاء الذين ولدوا فيها وولد فيها من قبلهم آباؤهم واسلافهم الى ازمنة لايعيها التاريخ .

والطائفة الثانية هم المهاجرون من القارة الأسيوية ، وأكثرهم من العرب والهنود وابناء الجزر الملاوية .

والطائفة الثالثة هؤلاء الأوربيون المستعمرون ، سواء كانوا من ابناء الدول ذوات المستعمرات أو كانوا من الدول التى لاتملك المستعمرات خارج

بلادها ، وهم قليلون لايزيد عددهم على المئـات ، وليس لهم حساب خاص في هذا المجال ٠

أما أبناء القارة الأصلاء ، فلا خلاف في مصيرهم ولا طاقة لأحد باخراجهم من أوطانهم أو انكار نسبتهم اليها ٠

وأما المهاجرون من القارة الأسيوية فليست لهم مشكلة قائمة في الوقت الحاضر ، وان نشأت لهم مشكلة فهي من المشكلات التي تنسى مع الزمن حتى تزول ، لأنهم يصبحون أفريقيين ويتساوى أبناؤهم وأبناء الافريقيين غدا في كل شيء ، وقد يتزاوجون ويتناسلون ويتفاهمون بلغة واحـدة ، كمـا حدث في القرون الأخيرة ، فكل من في السواحل اليوم افريقي حـــديث وأسيوى قديم ٠

وقد روى صاحب كتاب « الفاشية الافريقية » حديثا من أحاديث المجالس التي تجمع بين الأسيويين والأوربيين في أفريقيـــة الشرقية ، فقال أحدهم ـ وهو هندى مسلم محام يسمى أحمد ـ : « ماذا نعني بمصالحنا ؟ انهـا مصالح افريقية الشرقية بلا جدال ، وهذه الجالية الأسيوية لها جذور هنا كأمتن مانكون جذور الأوربيين بل الافريقيين ، وقد كان آباء بعضنا في طليعة المهاجرين ، وليس بين المقيمين هنا من أقدم الأسر من ينظر الى كينيا أية نظرة غير النظرة التي تعتبرها وطنه ومستقره ٠٠ لم تبق لنا جذور في الهند ، وقد أزورها في قضية من القضايا فتخفى على بعض لهجاتها » ٠

فالمهاجرون الذى ينظرون الى افريقية هـذه النظرة لن تصـادفهم فيها مشكلة الوطن ومستقبله ، فمن لم يقم في هذا الوطن افريقيا فليس في وسعه أن يقيم فيها سيدا يلحقها ببلاده ويخضعها لسطوته ويستقر فيها يعامـل أهلها الأصلاء معاملة الغرباء ٠

أما المشكلة التي لاحل لها بالحسنى فهي مشكلة الأوربي الذى يتخذ من افريقية مقرا للسكن ويبسط سيادته على أهلها بغير أمل في انتهـاء هـذه السيادة ، الا أن يظل الافريقيون عبيداً مسخرين أو يثوروا عليه فيطردوه بلا هوادة ولا مسالمة ٠

ان الأوربيين يضعون المسألة هذا الوضع بغير مواربة ولا مغالطة ، لأنها في الحقيقة مسألة واضحة لاتقبل المغالطة ، وقد لخصتها احدى الموسوعات الصغيرة فقالت : « أنه لغنى عن القول ان هذه المسألة من المسائل العسيرة التى لاتحل بتكرير الكلام على المساواة بين الأجناس وأنه لا وجود للعنصر الممتاز أو للقومية الممتازة ، والمعضلة التى تواجهها بلاد كافريقية الجنوبية لايمكن تبسيطها وتجريدها من صعوباتها على طرفيها ، فليس أمام هذه البلاد غير طريقة من طريقتين : أما قمع السود واخضاعهم على الدوام ، والنتيجة آخر الأمر هي الثورة الدموية ، واما تخويل السود حقوق المساواة البرلمانية والنتيجة اذن هي نزول البيض عن سلطانهم وتسليمه الى السود لرجحانهم الكبير فى عدد الأصوات ، وعلى سبيل الانصاف للقلة البيضاء نقول اننا لانعلم في التاريخ طائفة نزلت باختيارها عن سيادتها ، وان المعضلة أعضل بكثير مما يتخيلها أكثر الناس » ٠

هكذا يلخصون معضلة السود والبيض فى القارة الافريقية ، وينسون أنهم قد نطقوا فيها بحكم التاريخ الفاصل وسنة الطبيعة القاهرة ، لأنهم يطلبون المستحيل حين يطلبون النقيضين ، ولامهرب من الخيبة عاجلا أو آجلا لمن يتعلق بحبال المستحيل ٠

ومهما بلغ من سلطان البيض فى افريقية فهو أضعف من الغاية التى يطمحون اليها والنية التى يبيتونها ، وقد بيتوا النية على تسخير مئات الملايين بغير أمل فى الخلاص القريب أو البعيد ، وهى أمنية لايعارضها مئات الملايين وحدهم ، بل تعارضها الطبيعة معهم ، وقد يتخاذل دونها سلطان البيض يوما من الأيام ، فلا ينقاد لهم ولا تجتمع كلمتهم عليه فى موقف الحسم حيث يحتاجون اليه ٠

لن تصبح افريقية « وطنا » للمستعمرين الا بوسيلة واحدة ، وهى أن يصبح المستعمرون افريقيين كسائر الافريقيين ، وان يجيء اليوم الذى يقفون فيه مناضلين عن افريقية فى وجه المغير الأوربى ، كما فعل « الأمريكى » فى وجه بريطانيا ووجه اسبانيا ، وقد كان أجداده قبيلا من البريطان والأسبان ٠

الا أن الطمع يسول للمستعمر أن يقلب الأوضاع وأن يبلغ بذلك ما لا تبلغه الأطماع ، فهو لايصبح « أفريقيا » اذا نوى الاقامة فى البلاد الافريقية ، بل يخلع الافريقى من وطنه ويقتلعه من جذوره ويقول : انك قد أصبحت معى فى عداد الأوربيين ، ويخيل اليه أنه قد خدعة فانخدع واستنام ٠

كذلك فعل المستعمر الفرنسى فى بلاد الجزائر ، وكذلك يعلمون الطفل الافريقى أنه ابن فرنسا وأن فرنسا أمه الحنون ، وكذلك يغصبون لسانه ووجدانه ويسومونه أن يكذب عينيه وأذنيه وأن يصدق منهم الكذب الذى يعلمونه ويعلمون انهم اول مكذبيه ، وقديما طمع « أشعب » فى مثل هذا المطمع ، فأعياه المخرج والمطلع ، وسيعيى بعده كل « أشعب » جديد ٠

فليس فى الجزائر اليوم طفل يعرف التصديق والتكذيب يصدق أن فرنسا أمه وأن الفرنسية لسانه وأنه مساو للفرنسى فيما يريد الفرنسى أن يمتاز به عليه ٠

وسينتهى أمر الجزائر الى الانفصال عن أمها المدعاة لا محالة ولا خلاف ٠٠ فان يكن هناك خلاف فيما سيحدث فهو الخلاف فى رحلة الفرنسيين عنها او فى بقائهم بها جزائريين كسائر الجزائريين ، ويومئذ لايطمعون من الجزائرى أن ينتمى الى « أمه » فرنسا ٠٠٠ بل يحمدون الله ان قالوا له انهم أبناء الجزائر فقبل منهم هذا المقال ٠٠

وكذلك سيكون الوطن الافريقى فى القارة كلها : وطنا افريقيا للافريقيين ولا خيرة للسلطان الذى يعتز به المستعمرون اليوم فى هذا المصير ٠٠ انما الخيرة لهم يومئذ أن يرحلوا من القارة أو ينتسبوا اليها ٠٠ افريقيين كسائر الافريقيين ٠٠٠

النازية والشيوعية

النازية والشيوعية مذهبان متناقضان ، كلاهما عدو للآخر وحرب عنيه . ولكنهما في الباطن متقاربان ، أو كما يقول بعضهم في شيء من السخرية : ان كلا منهما يوضع في نعش واحد مع اختلاف موضع الرأس والقدمين .

كلاهما يعتمد على اثارة الضغينة والبغضاء ، ولكن النازية تثير ضغينتها على طائفة في الداخل أو على الدول المنازعة لها في الخارج . أما الشيوعية فضغينتها تثار على البرجوازية أو الأمم التي تتعامل برأس المال .

وكلاهما يبطل الحرية الشخصية ، ولكن النازية تدعو الفرد الى الفناء في قداسة الزعيم أو بنية العنصر القومي ، والشيوعية تدعو الفرد الى الفناء فيما تسميه مجتمعا بغير طبقات .

وكلاهما يحارب العقائد الدينية ، ولكن النازية تحاربها لتستبقي سلطان الزعامة على أتباعها ولا تسلم هؤلاء الأتباع الى زعامة روحية في غير معسكرها . أما الشيوعية فهي تحارب الدين لأنها تؤمن بالمادة دون سواها .

وكلاهما يدعي أنه « فلسفة حياة » .. أي أنه عقيدة كافية لعقل الانسان وضميره ، فلا حاجة للانسان معها الى نظرة كونية أو نحلة أخلاقية ، وليس لبني الانسان جميعا مصير غير المصير الذي يهديهم اليه .

واصطدم المذهبان بالواقع في ميدان الحرب وفي ميدان التجارب العملية ، فماذا تغير منهما .. وماذا بقي تحت غربال الزمن بعد التصفية قبل الحرب بسنوات وبعدها بسنوات ؟

ليس في أرض النازية اليوم صوت مسموع للسيادة الآرية ، فليس لهذا الصوت أثر في الحياة الثقافية ولا في المعيشة اليومية ، وربما تمهد

الجنس الأبيض والأجناس الملونة على اختلاط فى البلاد الألمانية لا يشاهد نظيره فى غيرها من البلاد ·

ومن الطبيعى أن يرحب العقل الألمانى بكل فكرة ترمى الى تبرئة وطنه من جريمة الحرب واعفائه من عقوباتها وتبعاتها ، فلهذا يوجد اليوم فى ألمانيا من يتحفظون فى الحملة على النازية ، وقد يكون فيها من ينكر النازية ويسفه سياستها ، ويشتد فى ذلك لو وقف الأمر عند حد الرأى والتاريخ ، ولكنهم يخشون أن تتخذ ادانة النازية حجة لادانة الألمان بأسرهم وتوقيع العقاب على حريتهم وكرامتهم فى مستقبلهم ، فهم لهذا يخففون الحملة على ذلك النظام ، وقد يزيد أناس منهم فيذكرونه بالخير ويجسون النبض ليعيدوه أو يهددوا باعادته ..ولو من قبيل المناورة واستغلال الظروف ·

أما الشعور الذى لم يتغير على ما يظهر فهو شعور العداوة لليهود ، وتبدو هذه العداوة فى المدافن فى معترك الحياة ، فلا يترك قبر سليم من القبور التى يحتفل سراة اليهود بتشييدها ، واذا سئلت الحكومة قالت انها لا تحاسب على شيطنة التلاميذ الصغار ، مع أن الحجارة التى تزحزح من تلك القبور لا يقدر على زحزحتها غير المردة الأقوياء ·· ومن حين الى حين تشيع على الأفواه أنشودة تلعن اليهود وتصيح بهم : عودوا الى اسرائيل · ومن أحدث هذه الأناشيد أبيات نارية لشاعر يسمى سترنك Strunk يذكر فيها اليهود فيسميهم « الخمسمائة الف ضبع » ويقول : ان ألمانيا طردتهم فذهبوا الى مملكتهم الرابعة ـ أو الرايخ الرابع ـ فى القارة الأمريكية ، ولم يلبثوا أن باعوا نيويورك بغير سماح ·

وقد تصدى زعماء الديمقراطيين لمقاومة التعويض الاسرائيلى ، وقالوا أنه قد يضر بمصالح التجارة الألمانية المصرية ، ويغلب على الظن أن عداوة اليهود أقوى اليوم وأعمق مما كانت عليه قبل الحرب العالمية ·

وقد وجهت احدى جماعات الاختبار والاستفتاء نحو تسعين سؤالا الى الفتيان والفتيات فى ألمانيا الغربية ، فكانت الأجوبة بيانا صادقا لشعور

الجيل الجديد فى تلك البيئة ، وتبين منها أن الطاعة الفطرية لم تتغير فى هذا الجيل الجديد ، فان نسبة الايمان بوجوب الطاعة وصلت الى ستين فى المائة بين بنات الفلاحين وسبعة وأربعين في المائة بين الطلاب الذكور ٠٠ وسئل الممتحنون عن « الشخصية الألمانية » الخالدة ، فظفر بسمارك بأكثر الأصوات ، ويليه فردريك الكبير ، ولم يظفر كل من هتلر وروميل وهندنبرج وشرلمان وجيتى الشاعر ولوثر امام المذهب البروتستانتى ٠٠ بأكثر من ثلاثة فى المائة ٠

وعلى هذه القلة فى أصوات لوثر يشاهد الاقبال على الكنائس ، ويشترك فى هذا الاقبال عدد غير قليل من أبناء العشرين والخامسة والعشرين ، ومعظم الآخرين ممن ناهزوا الأربعين أو جاوزوا الخمسين والستين ٠

* * *

أما الشيوعية ، فالتغيير فيها أعم وأوسع نطاقا من التغيير فى النازية ، وقد تكون علاماته قليلة مبعثرة لسيطرة الرقابة على الكتابة والكلام ، ولكن القليل منها ينم على اضعاف نظائره فى بيئة أخرى ، وبخاصة حين يتكرر ولا ينقطع بعد ظهوره للمرة الأولى ٠

فالصحف الأدبية تجهر بانتقاد الشعراء الذين يزعمون أنهم مغرمون بالأدوات الصناعية الاحصاءات الاقتصادية ، وترميهم علانية بالرياء والتكلف ، وتطالبهم بحق النفس الانسانية فى التعبير العاطفى والأشواق الطبيعية فى بنى آدم وحواء ٠

ويكتب النقاد أن الفن المسرحى ، أو الروائى ، لامعنى له اذا كان المفروض أن الرجال والنساء مخلوقون فى قالب واحد ، ومطالبون فى التفكير والحس بنمط واحد ، فلابد فى كل فن صحيح من حساب المفاجأة والاختلاف وتحقيق الرجاء مرة وخيبة الرجاء مرة أو مرات ٠٠

وكان اهرنبرج صريحا على غير عادته حيث يقول ملمحا الى خطط السنوات الخمس في الأدب والثقافة : ان المؤلف انسان قبل أن يكون

عضـــوا فى اتحاد الـكتاب السوفييتيين ، وانه ليس بآلة ولا بمحرك مصنوع يمشى بعداد ٠

ومثل هذا الـكلام كان خليقا أن يبعث بقائله الى مجاهل سيبريا ٠٠ لو كتبه الـكاتب قبل بضع سنوات ٠

وكانت الخلاعة معدودة من علامات التقدم والحرية ، لأنها آية على حب الحياة ونبذ الوصايا العتيقة التى تخلفت من عصور الظلمات ، فاصبحت هذه الخلاعة وصمة للخلعاء ومجـونا لا يليق بالأحرار المجدين فى خدمة المذهب والاشـــتغال بالأنفع من الأعمـال والأصح الأصلح من الملاهى والألعاب ، وترصـــدت صحيفة الـكروكوديل Krokodil وصحيفة « ايفننج موسكو » وغيرها من الصحف لهؤلاء العابثين ، تلتقط لهم الصور المزرية وتعلق عليها بالتحقير والتشهير ، وتنصبهم مثلا للسلوك الشائن بين « الأحرار التقدميين » ٠

وقد ظهرت هذه النغمة قبل ستة شهور ، ولا تزال تظهر فى الصحافة الجدية والصحافة الفكاهية على السواء ٠

ونحسب أن التحول فى ميدان العلم أعظم من هـذا التحول فى ميدان الأدب والسلوك ، فقد كان « ليسنكو » عالم التوليد والتجارب الزراعية والحيوانية طاغية علميا ، لا يناقش فى رأى ولا يسمع لغيره قرار فى علم الزراعة أو علم الحياة ، وكان العالم الروسى يفقد وظيفته ، بل يفقد حياته ولا يدرى أحد بمصيره اذا عارضه فى دعوى من دعاواه ، وكان سر الرضى عنه أنه كان يتعصب للمادة وينكر كل أثر فى الـكائن الحى لغير العوارض المادية ، فلا شخصية ولا وراثة ولا ملكة من ملكات العقل أو الغريزة ٠٠ الا وهى عنده أثر من آثار الأرض والهواء وعوارض الطبيعة فى المـكان ٠٠ فهذا الطاغية العلمى يتلقى الآن حملات العلماء فى الصحف والمجـــلات ويجترىء عليه بتهمة الغش والتضليل من كان يرتجف من مواجهته بالحجة والدليل ٠

ومن المقترحات التى تبدى الـكثير وتخفى الـكثير ان صحيفة « برافدا »

تطالب بتوسيع الدعاية لمقاومة الدين ونشر الالحـــاد ، وان المتحف الخاص بتواريخ الأديان والالحاد أعيد بعد اغلاقه عدة سنين ، وقد كان اغلاقه علامة من علامات الزمن ، فاصبحت اعادته ـ هذه السنة ـ علامة أقوى من تلك العلامة : كان اغلاقه تملقا للشعور الديني يوم علم القادة أن هذا الشعور قوة لا غنى عنها في الحرب العالمية ، فأصبحت اعادته الآن نذيرا للقادة ببلوغ ذلك الشعور حدا من القوة لا يأمنون عقباه • وقد ذهب الدكتور هينمان رئيس الكنيسة الانجيلية في ألمانيا زائرا لبطرق « موسكو » تلبية لدعوته ، ثم سئل بعد عودته عن حالة التدين هناك فقال : ان خمسا وخمسين كنيسة في موسكو تضيق بالمصـــلين ، وان طلاب علم اللاهوت يزدادون عاما بعد عام •

وتعلن صحيفة البطرقية أن العمل في ترميم الكنائس المهدمه يتقدم بانتظام ، على الرغم من ضخامة التكاليف واعتماد البطرقية على مصدر واحد لجمع النفقات هو تبرعات المصلين ، وقد تواترت أقوال الزوار العائدين من موسكو بوصف التسابق الى البذل في هذا السبيل ، فقالوا ـ كما جاء في اذاعة لايفان بليبين Bilibin ـ ان الصحاف التي تعد في الكنائس لجمع التبرعات لا تكفي ، وهي تمتلىء مرة بعد مرة ، فرجال الكنائس يجمعونها اليوم في سلال كسلال الغسيل •

* * *

تلك خلاصة عاجلة للتغير التي طرأت على النازية والشيوعية بعد عشر سنوات من الحرب العالمية ، وبعد ربع قرن من تجربة النازية وأكثر من ثلث قرن من تجربة الشيوعية ، فما تبدل من المذهبين فهو علامة صحيحة على صعوبة البقاء ، وما بقي فليس بالعلامة الصحيحة على الثبات والدوام ، لأن سنة الاستمرار وحدها كفيلة بمطاولة الزمن سنوات ، وان لم يكن هنالك من يتكفل بالمقاومة والدفاع ، وكان هنالك من يهدم ويهجم وراء المقاومين المدافعين •

وسيمضي الزمن ويصدق مذهب هيجل ـ أو مذهب ماركس ـ في شيء واحد : وهو أن الأضداد تتلاقى غدا من النقيضين ، ولن يبقى أخيرا غير الصالح المختار من محاسن النازية والشيوعية والديمقراطية مجتمعات • أما سيادة المذهب الواحد فما كانت قط في التاريخ ولن تكون •

صواب واحد وأخطاء كثيرة

موضوع هذه المطالعة يتناول الكلام عن مشكلة التعليم والتربية ، ومشكلة الدرس والثقافة ، ومشكلة الآداب الاجتماعية والأخلاق العامة .

ونعتقد أن هذه المشكلات جميعا ترجع الى سبب واحد أصيل ، يحيط بجميع أسبابها الفرعية .

ونعتقد كذلك أن العلم بهذا السبب الأصيل ينفعنا نفعا محققا فى تدبير الحلول الصالحة لتلك المشكلات ، وتدبير الحلول الصالحة لمشكلات أخرى ترجع الى ذلك السبب الاصيل .

تتكرر الشكوى من تقصير المتعلمين واهمالهم ، ويرى الشاكون بحق أن التلميذ فى هذا العصر لايصبر على الجهد الذى كان يصبر عليه التلاميذ فى عصور ماضية .

وسمعنا من يقول أن علم التربية ـ أو البدجوجية ـ قد أفلس وخيب الآمال ، ثم يسأل : أليس من النافع فى هذه الحالة أن نرجع الى خطة « الكتاب » أو المكتب الأولى فى القرن الماضى ؟ أليست طريقة « الفقيه » جديرة بالمراجعة بعد أن أهملناها وازدرينا بها كل الازدراء ؟

ويقول هؤلاء السائلون : أن الكتاب قد خرج للعالم العربى نخبة من النوابغ والقادة ، وانه ما من نابغ فى القرن الماضى الا وقد مر بالكتاب وتعلم فيه بضع سنين ..

والمراجعة فى اعتقادنا لاتسوغ القول بافلاس « البدجوجية » .. لان .. « البدجوجية » علم يتطور ولا يزال قابلا للتطور والتقدم مع تقدم علم النفس العام وعلم النفس الخاص بالناشئة المتعلمين .

ولا تدل المراجعة على أن الكتاب نجح حيث لم تنجح المدرسة ،لأن الكتاب لم يطلب منه ماطلب من المدرسة على درجاتها • فالنوابغ الذين اشتهروا فى القرون الماضية انما أخذوا من الكتاب واخذوا من المعاهد الأخرى ، وتغلبوا على العقبات لانهم نوابغ ممتازون ، ونحن ننظر الى النوابغ الذين حضروا التعليم في الكتاتيب ولاتنظر الى الألوف ممن لم ينبغوا ولم يتابعوا الدراسة • ولم يكن مطلوبا منهم أن يتابعوها ، اذ كان كل مقصدهم من التعليم أن يلموا بمبادىء القراءة ومبادىء الحساب ، وتزويد الكتاب لهم بهذا القسط الضئيل من المعرفة لايدل على نجاح كبير •

فليس من الانصاف أن يقال ان النوابغ قد نبغوا بفضل الكتاب ، لأن نبوغهم غير مقصور عليه •

وليس من الانصاف أن يقال ان تعليم الكتاب ناجح لانه خرج غير هؤلاء النوابغ ألوفا يعرفون الهجاء وارقام الحساب ، فان هذه المعرفة لا تحتاج الى فن من فنون التربية •

لكننا اذا قلنا أن الكتاب أفرط فى الشدة لانعني بذلك أن الافراط فى اللين مفيد ، وأنه يصلح حيث لا تصلح خطة الكتاتيب •

وانما الآفة هنا آفة شاملة مستفيضة فى العالم بأسره ، شملتنا كما شملت سائر الامم ، وشملت الآباء كما شملت الابناء ، وخلاصتها أن الانسان فى العصر الحاضر يعفى نفسه من التكاليف ويحسب كل شىء حقا له بغير عناء ، ينبغي أن يتيسر له بأهون كلفة أو بغير كلفة ، والا كان اللوم على الدنيا وعلى المجتمع وعلى كل مسئول أو غير مسئول ، ماعداه •

ولا ننسى أن بعض المشتغلين بالبدجوجية فى جميع اقطار العالم ، يظنون أن التعليم عمل لاصعوبة فيه ، وان المتعلم معفى من الجهد فى التحصيل ورياضة الاخلاق ، والا كان النقص من « البدجوجية » وطريقة التعليم •

هذه آفة العصر بجملته قد لحقت بطائفة من المسترسلين فى تياره على غير انتباه ، وخليق بنا أن نعرف هذه الآفة جيدا لانها ستلقانا فى كل طريق •

آفة العصــــر كله أنه ورث الجهاد من العصر المـاضي فى طلب الحقوق ·

كانت الحقوق ضائعة قبل القرن السابع عشر : حقوق الرعية ، وحقوق الأرقاء ، وحقوق الأبناء ، وحقوق النساء ، وحقوق كل أصحاب الحقوق على الاجمــــال ·

كانت العصور الماضية تنسى الحقوق وتذكر الواجبات . وتذكر الواجبات وهي تسيء فهمها في معظم الاحوال ·

فوجب أن تتغير هذه الاحوال ، ووجب أن تطلب الحقوق جميعا ، وأن يعلم كل مطلوب بواجب أنه طالب حق لايتركه لمن ينكره عليه ·

وقد حدث هذا وقام المغلوبون على حقوقهم فطلبوها وأدركوها أو أدركوا المهم منهـا ·

ثم حدث مالابد منه من الافراط بعد التفريط ، فاوشكنا لا نســـمع خبرا لغير الحق المدعى . وأوشكنا ننسى أن هناك شيئا يسمى الواجبات مقترنا بما نستحقه أو ندعيه من حقوق ·

حق الرعية على الراعى · حق الابن على الأب · حق التلميذ على المعلم · حق الأسرة · حق الزوجة · حق العامل · حق الضعيف · حق كل مدع بحق ·· وأين الواجب ؟ ليس له من صوت ··! وقد كاد صوته أن يخفت حتى فى أعماق الضمير ·

هنا بدأ الافراط فى « البدجوجية » وخطر لفريق من المشتغلين بها أن التعليم خلو من كل مشقة ، وان التلميذ من حقه أن يتعلم كل شيء ولايتعب فى شيء ·

وكانت الفكرة ـ لذاتها ـ أخطر من مساويء التعليم القديم · لأن الطفل الذى يدخل ميدان الحياة وهو مؤمن باعفاء نفسه من الكلفة والمشـــقة ، يضعف عن أعباء الحياة فى الخطوة الأولى ويصطدم بالعقبات حيث توجـــد وحيث لاتوجد · لان العقبات كثيرة فى طريق من يظن أنه تخطـــاها فلا يلقاها ·

ان الرجوع الى خطة « الكتاب » لا يجدى ولا تلجئنا اليه الضرورة ، وانما نحن مضطرون الى تصحيح اخطاء المغالين من دعاة البدجوجية ٠٠ اذ أول فروض البدجوجية الصحيحة ألا يخطىء التلميذ فهم الواقع فى الحياة من بدايتها الى نهايتها ، وانه ليخطىء فهم الواقع جدا اذا فهم أن الدنيا فراش وثير يمهده له المعلمون والآباء ، وأنه يوطن نفسه على التعليم بغير جهد وبغير مشاركة منه في مجهود المعلمين ٠

مثل هذه المشكلة مشكلة القراءة والاطلاع فى عرف بعض الدعاة العصريين ٠

لا واجب على القارىء ٠ بل الواجب كله على الكتاب ، ومن حق القارىء أن يفهم بغير جهد ولا مراجعة ٠ والا فالذنب من أوله الى آخره على الكتاب ٠

ولو كان الغرض من الاطلاع أن يقرأ الانسان ما يدركه ولا يزيد عليه ، لما استحقت القراءة عناءها ، ولما كان للتأليف من رسالة يؤديها للقراء ٠

فللقارىء حق وعليه واجب ، وليس الواجب بأجمعه على المؤلف ، وليس حق المؤلف مسلوبا ضائعا بين الحقوق ٠

مثل هذه المشكلة أيضا مشكلة الآداب الاجتماعية والاخلاق العامة فى زماننا ٠

فما من جريمة نقرأ اخبارها اليوم الا لمسنا وراءها هذه العقيدة الخاطئة التى تبلغ غايتها حين يصل الأمر الى الجريمة ٠

عقيدة خاطئة مدارها على « الانانية » المطبقة ، وما الانانية المطبقة الا اعتقاد الحقوق ونسيان الواجبات ٠

ولد يقتل أمه لأنه من حقه أن يأخذ ، ومن واجبها أن تبذل له ما يريد ٠

عاطل يسرق ويختلس ، لأنه من حقه أن يعيش فى بذخ ، كما يعيش المترفون ٠

موظف ينهب المال المؤتمن عليه ، لأنه له هو ما دام فى يديه ، وليس لاصحاب المال ٠

كل انسان ذو حق يطلبه ويدعيه ،وما من انسان عليه واجب مطلوب٠

ومنذ أيام كنا نتكلم عن التسلح الخلقى مع اناس من فضلاء هذهالدعوة، فجاء ذكر بلد بلغت فيه دعوى الحقوق غايتها ، وقال لى ذلك الفاضل :ان هذا البلد ترتفع فيه نسبة الطلاق وترتفع فيه نسبة الانتحار ، وهما مظهر لآفة واحدة ، وتلك آفة النظر الى الحياة كأنها مسرح للملذات خلو من التبعات والعقبات ٠

قال لى ذلك الفاضل : ان الناس ينتظرون كل شىء من اللهحتىالشهوات، فاذا ابتلوا بالعذاب والمحنة فليس الذنب عليهم ، ولكنهم يحيلونه على المقادير ٠

قلت : نعم ٠ هى بعينها آفة الحقوق من بقايا العصر الماضى : يحقللانسان الخاطىء كل شىء فى نظر نفسه ، ولا يحق لله جل جلاله شىء من الاشياء فى تصريف المقادير ٠

انها أخطاء كثيرة وصواب واحد ٠

أخطاء فى تقدير واجب المتعلم ، وأخطاء فى تقدير واجب المتثقف الباحث عن المعرفة ، وأخطاء فى تقدير واجب المرء مع غيره ، وقلب للواجبات كلها الى حقوق ٠٠ مع أن المطالبة بالحق نفسه ان لم تكن واجبه لم يكن لها مسوغ فى العقل ولافى الخلق القويم ٠

ونود أن نستوفى القول فى هذه الآفة فلا نقصرها على محنة الخطأ فى فهم الحقوق ٠

انها ترجع الى هذا وترجع الى عرض آخر من أعراض عصرنا الحاضر : عصر الصناعة والاختراع ٠

لقد تعودنا أن نستخدم الآلات الميسرة وأن تعتمد عليها فى متاعبنا وجهودنا ، أو فى حمل الكثير من المتاعب والجهود ·

فنحن لانقرأ اليوم اعلانا عن آلة مخترعة الا قيل لنا انها تعمل بالنيابة عنا ولا تبقى لنا عملا يتعبنا أو يشغلنا ، وأوشك بعضهم أن يزعم انه يخترع لنا آلة تغنينا عن التفكير كما تغنينا عن الحساب ، وتقوم عنا بالحركة الحية حتى كأننا لم نخلق باعضاء ·

هذه آفة وتلك آفة ···

هذه آفة التعويل على الآلات قد جعلتنا نعول على الآخرين كأنهم آلات ، وكأنهم يعملون من أجلنا ولا نعمل من أجلهم كما يعملون ·

الا أن التعويل على الآلات يدور مثلها فى الحدود الآلية ، وانماتصبح المشكلة من مشكلات النفس حين تتعلق بفهم الحقوق الانسانية وفهم الواجبات البشرية ، ولا ضرورة للعودة الى الكتاب ولا ضرورة لاخلاءالتعليم والتثقيف ورعاية الأخلاق من جميع المصاعب والمتاعب ، وانما الضرورة التى لامحيد عنها أن نوازن بين حقوقنا وواجباتنا ، فلا نذكر ما نطلبه الا ذكرنا ما هو مطلوب منا ، ولو قام كل بما يطلب منه لما ضاع على أحد حق من الحقوق ·

سبعة كتب أثرت في حضارة القرن العشرين

موضوع هذه المطالعات « سبعة كتب اثرت فى حضارة القرن العشرين »

ويدعونا الموضوع الى بضع ملاحظات لتوضيح وجهةالنظر فيه ، وتوضيح وجهة النظر فى كل كلام عن الكتب ذات الأثر فى الحضارة والتاريخ •

فالملاحظة الأولى جواب لسؤال من يسأل : ولم سبعة كتب ؟ لم لا تكون خمسة أو عشرة أو عشرين ؟

والجواب عن ذلك : لامانع :

لامانع أن تكون عشرين أو أكثر من ذلك أو دون ذلك ، فلا يلزم أن تكون الكتب السبعة هى كل الكتب التى اثرت فى حضارة القرن العشرين ، وكل مايلزم ان تكون الكتب السبعة قد أثرت اثرا قويا ثابتا فى تلك الحضارة ، وأن تكون بمجموعتها متجاوبة متقابلة في تأثيرها ، أى أنها تحسب معا حين تحسب ولا تؤخذ على انفراد ، وهى فى ذلك تشبه الفرقة الموسيقيةالتي يعمل كل عازف منها على اداة ، ولايلزم ان يكون كل عازف منها اعظم الموسيقيين•

والملاحظة الثانية ان هذه الكتب لاتكون دائما اوسع الكتب انتشارا ، ولا تكون مفهومة بتفصيلاتها بين جميع المتأثرين بها ، بل هى لا تكون صحيحة مبرأة من الاغلاط العلمية والفكرية ، وأقوى ماتمتاز به أنها تخلق شعورا قويا بوجهة نظرها ، وانها تجعل العاملين يعتقدون أنهم يعملون بفكرة صحيحة ويتجهون الى وجهة ضرورية ، وانها تاتى بهــذا الشعور وبهذه الفكرة في الوقت المطلوب لابتداء حركة من الحركات ، أو لتقرير رأى من الآراء •

وبعد هذه الملاحظات نقول ان كتبا سبعة أثرت فى حضارة القرن العشرين أثرا لاشك فيه ، وانها كانت متجاوبة متقاربة فى آثارها وافكارها : وهى

كتاب « العقد الاجتماعى » لروسو ، وكتاب « الابطال » لكارليل ، وكتاب « اصل الأنواع » لداروين ، وكتاب « رأس المال » لكارل ماركس ، وكتاب « تفاوت العناصر البشرية » لجوبينو ، وكتاب « العبقرى » للمبروزو ،وكتاب « الامراض النفسية فى الحياة اليومية » لفرويد ..

هذه الكتب السبعة اثرت أثرا كبيرا فى حضارة القرن العشرين ، او عبرت تعبيرا وافيا عن تلك الحضارة ، ومضى على تاليف بعضها اكثر من قرن كامل ، وليس فيها اليوم كتاب واحد يسلم الباحثون صحته كل التسليم ، أو أرجح التسليم !

كتاب « العقد الاجتماعى » لروسو فحواه ان الناس جميعا نشأوا احرارا ونشأوا كذلك اخيارا ابرارا ، وانهم انما فقدوا بعض حريتهم بالتعاقد بينهم والاتفاق بين الحاكمين والمحكومين منهم ، ولا يجوز الحكم بغير تعاقد كهذا التعاقد او اتفاق كهذا الاتفاق .

والحكم بالتفاهم فكرة لم يبتدعها روسو من عنده ، ولكنه عبر عنها هذا التعبير البسيط فكان لها أثر واسع فى الثورات والحركات الوطنية التى نشأت بعده ، وكان لها أثرها فى انتقاض الامم على حكامها الاجانب أو حكامها الوطنيين الذين يرغمونها على الخضوع لمشيئتهم ، وخلقت احلاما عجيبة فى خواطر الناس ، لانها اقنعتهم بأنهم اخيار بالطبيعة وانهم لايحول بينهم وبين الخير الا سوء الحكومة ، فاذا زال سوء الحكومة عادوا كالملائكة فى السماء !..

وكتاب داروين عن « اصل الانواع » يقول ان انواع الحيوان جميعاتتنوع على حسب الظروف الطبيعية ، ومنها نوع الانسان .

ومن آثاره انه حول انظار الناس الى الأرض وجعلهم يقيسون الاخلاق والافكار بمقاييس الواقع او بالمقاييس العلمية كما اطلقوا عليها فى حينها ، وناقض فكرة « روسو » من جهة ليؤيدها من جهة اخرى : ناقضها فى احلام الخير القديم والحرية القديمة ، وأيدها فى انكار دعوى الملوك القائلين بالحق

الالهى . فليس لأحـــد ـ على مذهب داروين ـ حـق الهى فى السيطرة على هذه المخلوقات الآدمية .

وكتاب « كارليل » عن الأبطال جاء فى أبان الايمان بحركات الجماعات والمساواة بين الافراد والتمرد على العظماء ، ليقول كما قال الشـــاعر العربى الحكيم :

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سراة اذا جهالهم ســـادوا

فلا غنى لسواد الناس عن الابطال فى كل زمن ، ولا تتمثل البطـــوله فى صورة واحدة بل تتمثل فى صور شتى ، وجميعها لازم لصلاح الجماعات والشعوب .

ويعد كارليل فى العصر الحديث أبا لفكرة الزعامة المقدسة التى دان بها الفوهرر والدوتشى والكوديلو وغيرهم من زعماء القرن العشرين ، وأبوته لها أثبت من أبوة نيتشه صاحب دعوة « السوبرمان » .. لأن السوبرمان فكرة غير واضحة يكثر فيهـا الخلط بين التطور الجسدى والتطور العقـلى . ويفهمها نيتشه فهما منحرفا لاعتقاده ان السوبرمان يترقى عن الانسان . كما ترقى الانسان عن القرد ، مستندا الى مذهب داروين وهو براء منهذه الآراء .

وكتاب « راس المال » لكارل ماركس يفسر التاريخ بالحرب بين الطبقات . ويرى ان هذه الحرب تنتهى بظهور الطبقة التى سماها طبقة الصعاليك ، ومن المتأثرين به والمتكلمين باســـمه جميع الشيوعيين فى أقطار العالم .

أما جوبينو الفرنسى فهو اول القائلين فى العصر الحديث بتفاوت العناصر البشرية ، وأن بعض العناصر مخلوق للسيادة وبعضها مخلوق للخضوع ، وهو راس البدعة التى تشيد بالمزايا الآرية ، وتفســيره للطبقـــات أنها تنتمى الى عناصر مختلفـــة ، فالعنصر الصراح منهـا هو الذى يسود والعنصر المدخول أو الوضـــيع هو الذى يساد ، وعنـــده أن « الفرانك » الذين سميت بهم فرنسا هم الأحرار حقا كما يؤخذ من اسمهم ، وأما سـائر الشعب فهم من سلالات وضيعة خلقت للطاعة والانقياد .

ومذهب « جوبينو » هذا ملحوظ فى كل دعوة الى التفاوت بين الاجناس سواء كان التفاوت بين الآريين والساميين ، أو بين البيض والسود ، أو بين الغربيين والشرقيين ، أو بين الشماليين والجنوبيين ٠

ولمبروزو صاحب كتاب « الرجل العبقرى » و « الرجل المجرم » ملحق لابد منه لفكرة البطولة والزعامة وحق السيادة وحقيقة الطبائع الموهوبة المعروفة عن النوابغ الممتازين ٠

فالعبقرى عنده مخلوق استثنائى بتركيب عقله وجسده ، فعقله استثنائى ممتاز ، وجسمه استثنائى بما فى تركيبه من الاختلاف ، وقد يكون هذا الاختلاف مسا يسيرا من الجنون ، ولكنه جنون يخالف جنون اجرم ، لأن جنون العبقرية مثمر وجنون الاجرام عقيم ٠

أما «فرويد» فحديث العقد النفسية التى جاء بها على كل لسان ،وحديث البواطن الجنسية التى تكمن وراء الاعمال الظاهرة مدار القصص والتراجم والتحليلات فى هذه الايام ٠

تلك هى الكتب السبعة التى نلمس آثارها فى الحضارة الحاضرة حيثما اتجهنا ٠

ولم نجمع بينها الا لأنها تتجاوب وتتقابل وتشترك جميعها أحيانا فى تعليل الكثير من أسرار التاريخ فى القرن العشرين ٠

ففكرة الأبطال ، وفكرة الامتياز العنصرى ، وفكرة العبقرية الاستثنائية ، تتلاقى فى الدعوة النازية والدعوة الفاشية ، والدعوات المتوسطة التى لا تتطرف هذا التطرف فى اندفاعها ٠

وفكرة المساواة عند ·وسو ، وفكرة الصعاليك عند كارل ماركس تتلاقيان ، ويتلاقى معهم ' داروين فى هدم المزاعم التى كان يزعمها الملوك حين يدعون الحق الالهى ·ى السيطرة على الشعوب ٠

وداروين وفرويد ·'.روزو يتلاقون حين يرجعون بالاخلاق الى اسباب حيوانية بيولوجية ، هكذا سائر المذاهب والأقاويل ٠

وقد اخطأ الناس فى تصور هذه المذاهب والاقاويل ، كما اخطأ اصحابها فى تصويرها ٠

فشــاع زمنا أن داروين يقول بانتساب جميع الآدميين الى القــرود ، وهو لم يقل ذلك قط ، وانما قال ان الحيوانات العادية انواع متقاربة فى التكوين ٠

وكارل ماركس يقول : ان المذاهب الاجتماعية تنعكس من أحوال الأمم ، وهو ـ اى كارل ماركس ـ قد ولد فى المانيا ، وكتب مذهبه فى انجلترا وطبقه تلاميذه في روسيا ، وليس أبعد من هذه الامم فى تفاوت الاحـــوال

ويقول ايضا متنبئا ان مذهبه يتحقق فى البلاد التى تترقى فيها الصناعة الكبرى الى غايتها ، ولكن الواقع ان مذهبه يفشل فى بلاد الصناعة الكبرى ولا يشيع الا فى بلاد لم تكن لها صناعة كبرى ولا صـــغرى ، الا تلك الصناعات المتخلفة من قديم العصور ٠

والكونت جوبينو فرنسى عريق ، ولكنه أعطى الجرمان الحجة فى اخضاع بلاده للسلالة الآرية ، ونشر كتابه فى فرنسا ليعلق الالمان عليه بالحواشى والشروح ٠

و «سيجموند فرويد» نفسه مجموعة من العقد النفسية والعادات الغريبة ، ولم يستطع أن يشفي عقله الباطن من هذه العقد النفسية الى آخر حياته : كان ينسى الأسماء ومنها اسم أحد معارفه الدكتور فرويد ، وكان يتتبع أوراقه التى تدخل فى ترجمة حياته فيحرقها ، وكان يؤمن بانه سيموت فى نهاية الحرب العالميــة الأولى ، فمات فى بداية الحرب العالميــة الثانية ، وكان يدخن عشرين سيجارا كبيرا فى النهار ليهدىء من سوراته العصبية ، وكان فى طفولته ينسى نفسه ليلا فى فراشه ، وكان يخشى من السفر بالقطار ويحضر الى المحطة قبل موعد قيامه بنحو ساعة ، وكان له خمسة مساعدون كلهم يهود ، وكان دائم العزلة لم يسمح لأحد أن يصاحبه طويلا غير مترجمه الدكتور ايرنست جونز ، وهو الذى يسجل فى ترجمته هذه المعلومات .

ولم يدخل عيادة « فرويد » انسان احوج من فرويد الى العلاج النفسانى ، من عقله الباطن الى بدواته الظاهرة ٠٠!

وبجمل القول فى الـكتب المؤثرة فى الحضارات انها لاتشترط فيها الصحة ولاتشترط فيها سعة الانتشار ، ولا يشترط فيها أن يفهمها المتأثرون بها على صواب ، وكل مايشترط فيها ان تخلق شعورا قويا بوجهة النظر ،وان يفهم قارئها انه يعمل على اساس صحيح ، وان تجىء فى أوان الحركةالمطلوبة فتتكفل لها بالفكرة وبالشعور ، ولا يلزم أن يبتدع المؤلف مذهبه لأول مرة ، بل يتفق احيانا ان يعبر عنه تعبيرا بسيطا قابلا للذيوع، وهكذا كان نصيب التعبير اكبر من نصيب الابتداع ، فى كتب اولئك المؤلفين

ھتلر کان صدیقی

كثير من حوادث التاريخ العظمى تسببه غلطة عاجلة فى الخطوة الأولى ، فتنهزم الجيوش الجرارة وتنهار الدول القوية ، من جراء خطوة غير موفقة يتعجل بها ولى الأمر المسلط على الأمة ، فتحيق أضرارها بالملايين من الاحياء، وتتخلف جرائرها الوخيمة الى أعقاب الأعقاب ٠

ويحدث ذلك كثيرا فى البلاد التى يتسلط عليها حاكم بأمره يقضى فى شئونها الجلى ولا راد لقضائه ٠ لان اخطاء الفرد الواحد لاتعصف بأمة كاملة فى البلاد التى تتوزع فيها السلطة ويجرى الأمر فيها على سنة الشورى ، فاذا أخطأ واحد فقلما يوافقه على خطئه واحد مثله ، فضلا عن العشرات والمئات من ذوى الرأى والخبرة وذوى الحق فى مناقشة الأمور العامة ٠

أما البلاد التى ينفرد فيها بالرأى حاكم بأمره لاراد لقضائه ، فقد يحدث فيها ذلك الأثر الجسيم من جراء عادة سيئة تتحكم فيه ، أو جراء وهم خاطىء يتمكن من تفكيره ، أوجراءنصيحة مقبولةيزينها الملق ويزخرفها الهوى ، فيدور دولاب الدولة كله ولا يقف عن المدار حتى يتحطم بمن يليه٠

لهذا تستحق السير الشخصية التى تكتب عن الحاكمين بأمرهم كل عناية ودراسة ، ومنها ما يكتبه الخدم أو يكتبه الزملاء والعشراء ، فلا يضيره ان يكتبه خادم صغير فى بعض الأحايين ، بل ربما كان ذلك من اسباب الاطلاع على الصغائر التى لاتنكشف للخاصة والعامة ، ورب كلمة سخيفة فى ساعة غضب أو ساعة خفة غير مقصودة ، تكشف من حقائق الرجل ما لا تكشفه الخطب والبرامج المدبرة ، والمظاهر التى يتأنق فيها صاحبهاقبل عرضها على الناس ٠

ومن الحاكمين بأمرهم فى العصر الحاضر من كتبت فى سيرتهم الخاصة مجلدات ، كتب بعضها حلاقون أو خدم شخصيون ، وكتب بعضها

حراسهم وأعوانهم فى أعمالهم ، وكتب بعضها من عاشروهم معاشرةالانداد والنظراء من سفراء الدول الأجنبية ، فلا نظن أن الأخبار التى رواها صغار المؤلفين كانت فى قيمتها النفسية ، أو التاريخية ، أقل شأنا من أخبار الكبار المطلعين على أضخم الاسرار ، لان العبرة هنا بالفلتات والخواطر العارضة التى تأتي على غير قصد ولا روية ، وربما سجلها الراوية وهو لايدرى بمعناها ولا يفقه ما تدل عليه •

وقد كان لهتلر أوفى نصيب من هذه السير التى دونها عنه صحابتهمن كبار الساسة وصغار الخدم ، وبين ذلك أناس من أصحاب الفنون يلاحظون الرجل بعين الفنان ويصفونه بريشة المصور ، ويلتفتون أحيانا الى النادر من أطواره كما يلتفتون الى أطواره التى تتكرر أمامهم فى كل يوم •

وأحدث ما كتب فى سيرة هتلر من هذا القبيل ــ كتاب مصوره«هنريك هوفمان » •• وهو من أذكى المشتغلين بالتصوير الشمسي ، واقدرهم على ملاحظة الملامح وماتنم عليه ، وكتابه الذى سماه « هتلر كان صديقى » هو موضوع هذا الحديث •

ومعظم النوادر التى قصها هوفمان عن طاغية النازية من قبيل التوافه التى لايلتفت اليها ، ولا تستحق أن تدون ولا أن تقرأ لولا أنها حديث عن رجل قبض بيديه زمنا على زمام أمه كبيرة هى الأمة الألمانية ، وقبض من ثم على زمام القارة الأوربية ، وزمام السياسة العالمية من ورائها •

وكثير من هذه النوادر السخيفة ، أو هذه التوافه الغثة ، مفيد فى التعريف بطبيعة هتلر ، مفيد فى التعريف بعلة نجاحه وعلة سقوطه ، مفيد فى الابانة عن خصلة مهمة فيه تدور عليها جميع خصاله ، وهى المعرفة بالرجال والجهل بالأمم فى وقت واحد •

كان بلوتارك ــ امام المؤرخين فى فن السيرة والترجمة ــ يقول ان الكلمة الصغيرة يفوه بها العظيم عفوا قد تكشف منه ما لا تكشفه معركة كبيرة •

وربما أطلع هتلر على هذه الكلمة فى تراجم بلوتارك ، وربما عرف هذه الحقيقة بالبداهة وصدق الفراسة ، ولكنه كان يهتدى بها ويهدى بها أعوانه كلما أراد منهم أن يصفوا له انسانا تهمه أن يعرف دخيلة أمره وأن يتبطن فيه عوامل القوة والضعف ، ومكامن الصدق والرياء .

لما سافر مصوره هوفمان مع البعثة السياسية الى روسيا ، عهد اليه أن يأتيه بصورة صادقة عن ستالين : صورة نفسية مع الصور الشمسية الكثيرة التى يسمح له طاغية الشيوعية بتصويرها فى مواقفه الخاصة أو العامة ، وقال له وهو ينبهه الى غرضه : « اننى أهتم بالتوافه أو الصغائر التى تمر أحيانا دون أن يلتفت اليها ، لكنها تكشف لنا لونا من طبيعة الرجل قلما تكشفه لنا التقارير الضافية التى ينمقها موظف ثقيل الدماغ فى وزارات الخارجية . وعلى هذا تذهب الى موسكو ياهوفمان ، وتفتح عينيك ! »

ولما عادت البعثة كان أول سؤال سأله لمصوره : « والآن ، ماهو الأثر العام الذى تركته فى نفسك مشاهدة ستالين ؟ »

قال هوفمان : « الحق اننى سررت وتأثرت كثيرا بشخصيته على الرغم من تكوين خلقته ، فهو زعيم مطبوع وصوته حسن الموقع والنغم فى الأذن ، وفى نظرته مزيج متناسب من الذكاء ، والطلاقة والدهاء ، وكانت معاملته لنا معاملة المضيف المرضى بغير كلفة رسمية وبغير نزول منه عن مكانته ، وأحسب أن أتباعه يكنون له أعمق الهيبة والتبجيل »

سأله هتلر : هل هو الذى يصدر أوامره صريحة أو طريقته فى اصدار الأوامر أن يلفها فى قالب الرغبة والتفضيل ؟ .

قال هوفمان : « انه فى الغالب يتخذ من مولوتوف لسانا يعبر به عن رغباته ، ثم يضيف اليها بضع كلمات لطيفة من عنده ، وأهم ما أخذت به انه كان بنظرة سريعة أو حركة من يده غير محسوسة فى بعض الأحيان يسيطر على الجلسة كلها بجميع من فيها .

فابتسم هتلر وقال : يلوح لى انك قد سحرت برؤية ستالين العظيم باصاح • ثم قطلب ونظر الى عروة سترتى قائلا : وأين شارة الحزب الشيوعى ؟ ••• ثم انهال بالاسئلة عن تدخين ستالين ومعاقرته للخمر ولهجته فى التحية التى اسداها اليه ، وأمعن طويلا فى النظر الى صوره الشمسية كانه يستشف منها ما وراء الظلال واللمحات •

اما حكم هتلر على رجال عصره ـ كما يؤخذ من العبارات التى نقلها المصور ـ فهو على الجملة حكم صحيح تؤيده آراء الأكثرين ممن عرفوا اولئك الرجال على القرب ، واختبروهم فى الاعمال •

كان يقول عن موسوليني انه زعيم قدير ولكنه سياسى دون ذلك فى القدرة ، ويعيب عليه أنه يظهر بلباس الحمام ، وقد كان هتلر كما هو ظاهر من تركيب بنيته ـ مشوه القوام ، فلم يسمح لهوفمان قط أن يصوره بلباس الحمام •

وكان حسن الراى بالساسة البريطان ، سيء الرأى جدا بالساسة فى أوربا الشرقية •

أما الزعيم الذى أثنى عليه بغير تحفظ فهو مصطفى كمال أتاتورك ،منقذ تركيا العظيم • •

على أن هذه الفطنة فى المعرفة بالرجال تنقلب الى سخف مطبق كلما تكلم عن أطوار الأمم وأراد أن يحكم على شعورها وحقيقة السياسة القومية التى تنتظر منها ، وجهله هذا بأطوار الأمم هو الذى قاده الى الغلطتين الجسيمتين فى تقدير موقف انجلترا وموقف روسيا بعد اعلانه الحرب عليها •

لقد كان يعتقد أن انجلترا لاتشترك فى الحرب العالمية ولا تعلن الحرب على المانيا ، فلما أعلنتها فعلا قبع فى كرسيه غارقا فى أفكاره ، وقال متمتما : نحن مدينون بهذا لخبرائنا فى الشئون الخارجية •

وكان يعتقد أن الغزوة الروسية لاتطول ، فبدد ماعنده من البترول أملا فى الاستيلاء على بترول الشرق كله بعد أسابيع ، وظن أن غزوته لروسيا تقربه من الأمم الغربية فاخطأه الظن فى كل تقدير ·

ويتراءى من ثنايا السطور أن المعلومات الخارجية عند النازيين كانت على نقص معيب أثناء القتال ، وقبل نشوب القتال ·

فلم يعلم هتلر بسفر تشرشل الى القاهرة الا من هوفمان ، ولم يعلم هوفمان بالخبر الا اتفاقا حين وضع يده سهوا على مفتاح لندن فى جهاز الاذاعة ، وكان الاستماع الى الاذاعات الخارجية محظورا أشد الحظر على أقرب المقربين الى الفوهرر !

وعاش هتلر فى حذر مفرط يذكرنا بحذر القياصرة والخواقين فى حياة القصور وراء الأسوار والحراس ، فلم يكن يذوق طعاما يصنع فى غير منزله، وجاءته من تركية هدية فاخرة من الحلوى فأمر بدفنها فى أرض الحديقة دون أن يطلع أحد على مكانها ·

وقد أوصى مصوره أن يبحث له عن شبيه ينوب عنه فى المحافل العامة التى لايخطب فيها ، فجاءه بشبيه يسمى أشنباخ وتبين بعد ذلك أن هذا الشبيه عالم بالأجناس البشرية فوكلوا اليه وظيفة التحرى عن خصائص الدم الآرى وخصائص الدماء المختلفة فى سائر الاجناس ·

ولم يكن هتلر يطمئن الى أحد ، وان أظهر الثقة ببعض المقربين اليه ، بل كانت الشبهة الصغيرة تكفى عنده لاجراء التحقيق الطويل للتثبت من نيات الاعوان والرؤساء فى أكبر مناصب الدولة ، وقد كلفه هذا الحذر جهدا نفسيا واضطره الى التردد فى أوقات لاتحتمل التردد أو الارجاء، وهذا على الرغم من اشتهاره بالاقدام وسرعة البت فى أخطر الامور ·

وقد توقع المصور ـ مؤلف الكتاب ـ سؤالا او أسئلة شتى عن نهاية هتلر على اثر اليقين من الهزيمة ، فوصف ساعاته الأخيرة مع هتلر وصفا

ساذجا لم يحاول فيه شيئا غير رواية الواقع كما وقع ، وهو غني عن الاضافة والحشو والتزويق ٠

مات هتلر حقا ، واحرقت جثته حقا ، واشرف على احراقها سائقه كيمكا Kemka ورئيس فرقة الشباب أكسمان Axmann وكانت مهمة هوفمان ن يقنع ايفا زوجة الفوهور بالنجاة قبل اطباق الجيوش الروسية على برلين ، فرفضت واصرت على رفضها ، وآمن هتلر بصواب رأيها أخيرا لأنه لم يعرف لها اذا فارقته فى تلك اللحظة نهاية أسلم من نهايتها الى جواره ٠

وذهب هتلر بخطئه وصوابه ، وان لم يذهب بعد ما قدمه من خطأ أو صواب ٠

بعد الحرب العالمية الرابعة

لم تحدث الحرب العالمية الرابعة ولا الثالثة ، ونرجو الا تحدث الحرب العالمية ثالثة أو رابعة فى الترتيب ، وأن يحمى الله بنى الانسان من شرورها المنظورة وغير المنظورة ٠٠ فانهم لم يسلموا بعد من شرور الحربين الأولى والثانية ٠

ولكن الحرب المحذورة حدثت في عالم الخيال ، ووصفها لنا كاتب من أشهر كتاب الصين في العصر الحديث ، وأدار عليها قصة مطولة من قصصه الممتعة التى يقبل عليها قراؤه الغربيون ، وان لم تكن مقبولة فى بلاده الآن ٠

هـذا الكاتب الصينى هو لين يوتانج Lin Yutang القصاص الفيلسوف ، وعنوان قصته الجديدة « الجزيرة غير المنتظرة » ٠٠٠ The unexpected Island وموضوعها ـ أو موضعها ـ جزيرة منعزلة فى البحر المحيط على مقربة من أمريكا الجنوبية ، لا يدرى أحد بها ولا يسمح سكانها لمن يصل اليها بأن يخرج منها ، خوفا من اذاعة سرها واقتحام الوافدين لجوارها ، وحرمانها نعمة النظام الوادع الأمين الذى تعيش فيه ، بمعزل من الحضارة وآفاتها ومنازعاتها وعلى رضى من سكانها اللاجئين اليها ٠

هى اذن جزيرة « روبنسون كروزو » تخلق على الطراز العصرى ، بعد مائتى سنة ونحو خمسين سنة من ظهور الجزيرة الاولى ، وبعد ان تكاثرت الجزر أو العوالم المنعزلة التى على شاكلتها ونقلها بعضهم من الأرض الى أجواز الفضاء ٠

وكثير منا يذكرون قصة « روبنسون كروزو » التى قرأوها ملخصة فى الكتب المدرسية ، وكثير من الأطفال يقراونها اليوم ويحلمون بمغامراتها ويتمنون لو تشبهوا بابطالها ، وقد كانت تحية الاطفال لمؤلفها فى قبره تحية مصرية مستمدة من التاريخ المصرى القديم ، فلقاموا قبل ست وخمسين

سنة « مسلة » مصرية على ضريح المؤلف دنيال ديفوى Danial Defoe جمعوا تكاليفها من تبرعاتهم الصغيرة ، وقالوا : انها تذكار من قرائه ومحبيه الكثيرين بين الصبيان والبنات ·

يحب الاطفال هذا النوع من القصص ، لان كل طفل فى الواقع انما هو « روبنسون كروزو » يفتح عينيه على جزيرة جديدة فى هذا العالم ،ويتطلع الى اليوم الذى يستقل فيه بشئونه ويدبر فيه أمر حياته بيديه ·

على أن الكبار أيضا يحبون هذا النوع من القصص عن الجزائر المنعزلة ، لانهم يضيقون احيانابالاعباء الاجتماعية والقيود التىتثقلهم بها نظمالحضارة فى كل زمن ، ويودون لو ينعمون ـ ولو فى الخيال ـ بحياة يقنعون فيها بالكفاف ، وينشئون فيها لأنفسهم ما يختارونه من المسكن والملبس والطعام ، ويختلقون فيها قوانينهم وشرائعهم بغير رقيب ولا حسيب ، لأنهم لا يفرضونها على أحد سواهم ولا يفرضها عليهم أحد ·

وهذه القصة ـ قصة روبنسون كروزو ـ ذات شأن فى الأدب لغير هذا السبب ، ولعلها ذات شأن عند قراء العربية خاصة ينفردون به بين قرائها فى جميع اللغات ·

فهذه القصة طليعة الفن الروائى فى العصر الحديث ، لم تسبقها قصة من قبلها ، ولم يكن للرواية العصرية رائد من المؤلفين بلغات الغرب قبل مؤلفها ·

أما شأنها عندنا نحن قراء العربية ، فهو راجع الى فضل الادب العربى فى الايحاء بها على ارجح الاقوال ·

فقد ظهرت قبلها قصة « حى بن يقظان » مطبوعة فى لندن سنة ١٦٧١ ··· وظهرت قبلها قصص الجزائر التى ترويها الف ليلة وليلة ، وينعزل فيها بعض السكان بعيشة غير المعيشة التى يألفها الناس فى سائر البلدان ·

ومن المعلوم أن دنيال ديفوى لقى فى حياته السائح سلكيرك Selkirk الذى اعتزل الدنيا باختياره أربع سنوات فى احدى جزر المحيط ، ولكن

سلكيرك فعل هذا فى سنة ١٧٠٤ بعد ظهور « حى بن يقظان » بثلاث وثلاثين سنة ، فكانت مغامرته فى رأى بعضهم من وحى الاطلاع على ذلك الكتاب الفريد .

أما الجزيرة العصرية ـ جزيرة الفيلسوف الصينى ـ فهى مخالفة بعض المخالفة لجزيرة دنيال ديفوى وجزيرة حى بن يقظان .

تلك جزيرة « الفرد » الذى يستقل بحياته ، وهذه جزيرة « المجتمع » الذى يستقل بآدابه وعلاقاته ونظراته العامة الى الوجود كله ، والى العلوم والأديان .

ونحن نسميها جزيرة عصرية لان مؤلفها يعيش بيننا فى العصر الحاضر . ولكنها فى الواقع « جزيرةالمستقبل » لأنها تعيش فىسنة ألفين وما تقدمها بقليل من السنوات .

والفيلسوف الصينى لايجعلها جزيرة مثالية كجزائر الاحلام مناصحاب المدن الفاضلة والعوالم الخيالية المعروفين بالطوبيين .

كلا .. ان الفيلسوف الصينى أمين لطبيعة قومه ، فهو لايذهب بعيدا مع الخيال ، ولا يزال يعتقد ان المثل الأعلى يرهق النفوس البشرية بالمطالب المستحيلة ، فتتعثر فى الشقاء وهى تطمع الى السعادة والسلام .

انما العالم كما يتمثله « يوتانج » بعد خمسين سنة عالم قريب مما نحن فيه ، وقد يمتاز من عالمنا الحاضر ببعض المزايا ولكنه ـ من جراء تلك المزايا ـ يتعرض للمتاعب والمشكلات .

تتحسن احوال الصحة ، وينجح الطب فى علاج الامراض المستعصية ، ويتعلم الناس أسباب الوقاية ، وكل ذلك حسن مطلوب ، ولكنه يؤدى الى نتيجته التى لامناص منها ، وهى زيادة السكان وازدحام المساكن وقلة الطعام ، ويضطر ولاة الأمر الى اتخاذ الحيطة لهذا الخطر الذى جاء من طريق السلامة فيفرضون الضرائب الثقيلة على كل طفل يولد بعد الطفل الثالث ، ويشجعون على قلة النسل بدلا من التشجيع على زيادته بالوصايا والاعلانات

ويبقى الجنس البشرى على درجات فى الحضارة لاتتساوى ، ولكن الفيلسوف الصينى يختصر الطريق فلا يضع الفوارق بين هذه الدرجات بعلامات العقول والعلوم ، بل بعلامات الاقدام والاحذية ..

فالحضارة العليا تمتاز بالحذاء ، والحضارة الوسطى تمتاز بالنعـــال . وما دون ذلك فهو عالم « الحفاء » المحروم من الحضارة !..

ويتنبأ الفيلسوف للأمم والدول كما يتنبـــأ للجنس البشرى كله ، فالديمقراطية الأمريكية تنقلب الى دكتاتورية لتنفيذ النظم التى يستدعيها تدبير المحاصيل والمصنوعات ، ويأتى من بلاد العـــرب من يعارض هذه الدكتاتورية .

أما الكتلة الشرقية فيختفى منها شعار المنجل والمطرقة ، ويخلفه شعار المكتب والدواة ، لأن المجتمع الذى حاول أن يلغى نظام الطبقـات ينقسم يومئذ الى طبقتين اثنتين : طبقة الجالسين على المكاتب ، وطبقة الواقفين فى انتظار الأوامر ، ويتغير كل شىء وفاقا لهذا التغيير .

وتظل بريطانيا العظمى عائشة بعد هدم عاصمتها ، ويقوم على عرشـــها الملك شارل الثالث يحف به رعاياه من أعضاء النقابات .

ويحتاج النواب فى فرنسا الى رياضة جديدة على هز الكتفين لاتقاء الأخذ بالرقبة فى أثناء المناقشات ، وتبقى فرنسا مركزا لثقافة القارة كما كانت

وتتطرف ايطاليا الى اليسار ولا يبالى أحد ما تصنع ، لأنها اذا ذهبت الى أقصى اليسار وجدته قد تحول الى اليمين .

وما مصير الحياة الروحية أو الفكرية عند نهاية القرن العشرين ؟

لابد من الدين على كل حال ، ولابد للانسان من معبود يعتصم به من هذا العالم المحسوس ، ولابد من الصلاة كما يوحى بها كل ضمير ، مع السماحة التى تقرب بين جميع الملل والعبادات ..

وتغلب على الفكر عقيدة « المتعة بالحياة » ‥ ولكنها متعة بريئة من العقد النفسية ، ومن الشطط الى حدود الاباحة والابتذال ٠

وتنحل مشكلة الجنسين بالرجوع الى قواعد الحكمة الشرقية ، فيصبح شعار المدرسة النسائية أن دراسة المرأة الصحيحة هي الرجل ‥ وتتعلم المرأة فى المدرسة كيف تسوس قرينها وكيف ترضيه وترضى نفسها معه عن البيت ، وتتعرف الجوانب المظلمة من الطبيعة البشرية كما تتعرف الجوانب المشرقة ، ويحتفل باتمام دراستها فى المعهد احتفالا رمزيا ،ينتهى بتسليمها صورة كتاب من الطين ، تقذف به الى جوف الماء ، ايذانا بختام القراءة وابتداء العمل فى الحياة ٠

ومهما يكن من مصير التعليم والثقافة والدين ، فسوف يظل الجنس البشرى منقسما الى قسميه الخالدين : قسم الانسان الذى يعنى بشئون نفسه ولا يتطفل على شئون غيره ، وقسم الانسان الذى لايستريح حتى يدخل فيما لايعنيه ويملى على غيره ماينبغى وما لاينبغى من خاصة أمره ٠

واذا كان تبديل الطبيعة البشرية مستحيلا أو كالمستحيل ، فمن الممكن أن يستفاد من هذين القسمين كما خلقا فى هذه الدنيا ، فيتعلم الفضوليون أن يصرفوا فضولهم الى المنفعة العامة وان يعنوا بخدمة الناس ولا يحصروا عنايتهم فى حب الاستطلاع والتعرض للخصوصيات ، ويتعلم الفريق الآخر اتقان عمل الفرد والاستغناء به عن المشرفين والمراقبين ، وتخلق من الضرورة فائدة كما يقولون ٠

ويبالغ الفيلسوف الساخر فى التهكم فيقول ان العلوم النفسية تتقدم فى المستقبل فيعرف رجال الدين وهداة الأمم أساليب للامتحان يسبر بها غور الانسان ٠ وتقاس بها الفضائل والرذائل بالسنتيمترات ، ويكفى فيها توجيه قليل من الاسئلة لاستكشاف أعمق أسرار الضمير ، ورسمه كما ترسم نبضات القلوب ٠

وعند الفيلسوف «الواقعى» أن هذا العالم منا واننا نحن من هذا العالم وان الطبيعة صديقة لنا اذا أردنا صداقتها ، ولكنها تلتوى علينا اذ

أنكرنا حقهاوأصررنا على تسخيرهاواستعبادها ، ولم تخلق الجبال ـ كمايقول ـ لنعلوها دائما ونستوى على قمتها ابدا . بل خلقت كذلك لننظر اليهـــا ونرتفع بالنظر الى أعاليها ، ونترقى فيهاعنيهة ونستريح عنيهة ، ولانشقى فى حالة من الحالات لاننا لانستطيع ان نحملها على أكتافنا !

وربما كانت الكلمات التى تتخلل القصة أجمل من الآراء والتقديرات، ولكن الحكمة الغالبة عليها أن الحياة لا تخلو من مشاكلها ، واننا اذا قضينا على بعض سيئاتنا كان الخلاص من هذه السيئات مشكلة جديدة ، وان توطين النفس على هذه الحقيقة يساعدنا على احتمال مالابد منه ، فان لم نسترح منه فقد نستريح من صدمة المفاجأة ، فلا يطرأ لنا يوما على غير انتظار ٠

كذلك تخيل الفيلسوف الصينى عالمنا فى نهاية القرن العشرين ،وكذلك بخيل الجزيرة التى تنفرد بسكانها عالما مستقلا عن حضارة القرن الحـادى والعشرين ٠

ما العبرة من كل هذه الأحلام ؟ ما العبر من هذه الجزر النائية التى راودت الخيال الانسانى وستراوده فى كل زمن ؟ ٠٠ العبرة فى نفس كل انسان ٠٠ العبرة أن الانسان لايستطيع أن يظفر بأمل فى السعادة الااذا استطاع أن يخلق لنفسه جزيرة يأوى اليها كلما شاء ، وانها لخير منجزيرة روبنسون كروزو ، وجزيرة لـين يوتانج وجزيرة حى بن يقظان ٠

الصوفية في الإسلام

ترجم السردار سير جوكندرا سنج Jogendra Singh دعوات الأنصاري عبد الله الى اللغة الانجليزية ، والمترجم برهمي وصاحب الدعوات صوفي مسلم ، وقراء الدعوات كثيرون بين المسلمين وغير المسلمين ، ولما ترجمت الى اللغة الانجليزية به قرأها كذلك أناس من الأوربيين المسيحيين ، وأعيدت طبعها بعد ظهورها لأول مرة منذ ست عشرة سنة .

ومن الذين قرأوها وأعجبوا بها المهاتما غاندى قديس الهند المشهور . فكتب لها مقدمة قال فيها : « ان المترجم جدير بالتهنئة لأنه يسر لنا أن نقرأ أقوال الصوفي عبد الله الأنصاري باللغة الانجليزية ، ولقد أعطى الاسلام العالم نخبة من الصوفيين لا يقلون عن الهنديين والمسيحيين . وانه ليحسن في هذا الوقت الذى يعرض لنا الجحود في صورة الدين أن نذكر أنفسنا بخير ما أخرجته العقول المتدينة بجميع الأديان وخير ما قالته ، وألا نظل كتلك الضفدعة التى تظن فى بئرها أن الكون كله ينتهى عند جدرانها . فلا يخطرن لنا أن ديانتنا وحدها هى التى تحتوى الحقيقة كلها . وان ما عداها زيف وباطل .. »

كذلك فهم القديس الهندى دعوات الصوفي المسلم كما قرأها مترجمة باللغة الانجليزية ، وكذلك بين لنا مرة أخرى أن الصوفيه الاسلامية هى الجانب الذى يفهمه كل من يفهم روح الدين ولو لم يكن من المسلمين ، وأنها هى الحكمة العميقة التى لا يحجبها اختلاف الشعائر والتكاليف بين الديانات .

والمهاتما غاندى كان يعنى ولا شك ـ أن الاسلام قد أخرج للعالم طرازا عاليا من الصوفية لا يقل عن الدين الذى اشتهر بها وهو دين الهند القديم ، ولا عن الدين الذى اشتهر المتصوفة منه باللغات الأوربية ، وهو المسيحية على اختلاف مذاهبها .

الا أن المهاتما غاندى ـ على ما يظهر ـ لم يفرق بين الصوفية والانقطاع عن الدنيا ، ولا رهبانيـة في الاسلام كما هو معلوم ، وكذلك لا يستحب للمسلم أن ينسى نصيبه من الدنيا . لأنه مأمور بذلك فى القرآن الكريم .

فاذا فرقنا بين الصوفية والانقطاع عن الدنيا . فالديانات الأخرى قد أخرجت من الرهبان والنساك المنقطعين أكثر ممن أخرجهم الاسلام بغير مراء . الا أن الأمر يختلف عند الكلام على الصوفية الاسلامية ، فان عدد الصوفيين ذوى الآراء والأقوال بين المسلمين أكثر من أمثالهم فى جميع الديانات الأخرى ، واذا جمعت أقوال المتصوفة فى الاسلام ملأت الأسفار الكبار ، وطرقت كل باب من أبواب الحكمة الالهية عرفه المتدينون .

ان المتصوفة المسلمين يحسبون بالمئات ، ويتسع التصوف الاسلامى بأنواعه كما يتسع بعدد المتصوفين .. فان الصوفية ـ كما هو واضح ـ أنواع ومذاهب . وكل نوع من أنواعها ، وكل مذهب من مذاهبها قد كان له أئمة وأشياع بين الأمم الاسلامية .

وتلك مسألة مفهومة بالبداهة .. فقد دان بالاسلام أناس من الهنود والفرس والطورانيين والحاميين ، كما دان به العرب واخوانهم من الساميين ، ولكل أمة مزاجها ، ولكل مزاج أثره فى الوجهة الصوفية . فلا عجب أن يتسع الاسلام لكل نوع من أنواع الحكمة الصوفية عرفه المتدينون .

وليس فى الحديث فسحة للاحاطة بهذه الأنواع ، ولو بالاجمال الشديد ، ولكننا نحيط بعناوينها الكبرى وفيها الكفاية للدلالة على ما ينطوى تحتها من الفروع .

فالصوفية من حيث الموضوع نوعان عظيمان : نوع العقل والمعرفة ونوع القلب والرياضة .

والصوفية من حيث موقفها من الدنيا كذلك نوعان : نوع يتخطاها وينبذها ، ونوع يمشي فيها ويصل منها الى الله ، ويتأدى من الخلق الى الخالق جل وعلا ·

وكل هذه المذاهب عرف في الاسلام على أوفاه · فمن الصوفية العقليين طلاب المعرفة من يحسب فى عداد الفلاسفة الأفذاذ ، ولا نعرف فى عقول الفلاسفة عقلا يفوق عقل الغزالى فى قوة التفكير ، ولا نعرف موضوعا من موضوعات الحكمة الالهية لم يلتفت اليه محيى الدين بن عربى ، وقد قيل ان ذا النون المصرى كان فى طبقة جابر بن حيان فى علوم الكيمياء ، وانه كان من الباحثين فى طلاسم الآثار الفرعونية ·

وهؤلاء الصوفيون العقليون يذهبون بالعقل الى غاية حدوده ، ولا يتهيبون الشكوك والاعتراضات ، بل يقولون بلسان الغزالى ان الشك أول مراتب اليقين ، ولكنهم متى بلغوا بالعقل غايته ملكتهم نشوة الوجدان فأسلموا أمرهم كله الى الايمان ·

وليس اشتغالهم بالعقل مانعا لهم أن يشتغلوا بالرياضة النفسية ، وانما يشتهرون بأفكارهم لأنها الصلة بينهم وبين تلاميذهم ومريديهم وقرائهم . وتغلب شهرتهم بالفكر على شهرتهم بالرياضة ·

أما الصوفيون القلبيون فهم يلتمسون المعرفة المباشرة برياضة النفس على قمع الشهوات ، وعندهم أن شهوات الانسان هى الحائل بينه وبين النور · فاذا ملك زمامها وأفلت من قيودها تكشف له النور فوصل الى مرتبة العارفين ، وأغناه صفاء النفس عن دراسة الدارسين وبحوث الباحثين ·

والصوفية من حيث علاقتها بالدنيا نوعان كما تقدم : نوع يرفضها لأنها وهم وغشارة مزيفة كالطلاء الذى يوضع على المعدن الخسيس ، ليخيل الى الأنظار انه معدن نفيس ·

ونوع آخر يخوض غمار الدنيا ليبتليها ويمتحن نفسه بتجاربها وغواياتها ، وعنده أنها جميلة لأنها من خلق الله ، وكل ما يخلقه الله جميل ·

وهذا النوع من الصوفية أقرب أنواعها الى الاسلام · وليس على المسلم حرج أن يرى للدنيا ظاهرا خداعا وباطنا صادقا أجمل من ظاهرها ، فان قصة الخضر مع موسى عليهما السلام تدور كلها على التفرقة بين الظواهر والبواطن فى الأحكام والنيات ·

الا أن الصوفى المسلم يقاوم مطامع الدنيا لأنها تحجبه عن حقائقها العليا ، ويضربون المثل لذلك بالغزال الظمآن فى الصحراء · فلا حرج عليه أن يطلب الرى من الماء ، ولكنه اذا غفل عن نفسه لم يسلم من خداع السراب ، فانقاد الى الهلاك · فاذا أصابه الظمأ فليعلم موارد الماء وليكن على حذر من موارد السراب ، وليفرق كما يقولون بين سراب لا شراب فيه وبين شراب لا سراب حوله ، وتلك هى الرياضة التى تستفاد من قمع الشهوات ·

وكثيرا ما يبحث الأوربيون فى التصوف الاسلامى ويقصدون به الكلام على أشخاص المتصوفين الذين ظهروا فى البلاد الاسلامية ·

وقليلا مايبحثون فى هذا التصوف ويقصدون به مذاهب التصوف التى يسمح بها الاسلام ·

فالدين الاسلامى قد انتشر فى أقطار شاسعة كانت فيها من قبله عبادات وثنية وغير وثنية ، وقد تسرب بعضها الى أبناء تلك الأقطار واختلط بعضها بالعقائد الاسلامية من طريق الوراثة والاستمرار ، ولم يسلم التصوف من تلك الأخلاط فاقترن فى أقوال أناس من المنتسبين الى الاسلام بما يجوز ومالا يجوز ·

وعلى الجملة يمكن ان يقال ان الاسلام ينكر من تلك المذاهب مذهبين منتشرين فى الصوفية على عمومها : ينكر مذهب الحلول ، كما ينكر المذهب القائل بوحدة الوجود ·

فلا يقر الاسلام مذهبا يقول بحلول الله في جسد انسان ، ولا يقر مذهب القائلين بفناء الذات الانسانية في الذات الالهية . واذا تحدث المتصوف المسلم عن الفناء فسره بفناء الشهوات أو فناء الأنانية وحلول محبة الله محلها من القلوب والأرواح .

ولا يقر الاسلام مذهبا يقول بوحدة الوجود ، أو يقول بأن الله هو مجموعة هذه الموجودات ، وان الكون كله بسمائه وأرضه ومخلوقاته العلوية والسفلية هو الله .

واذا أجاز المتصوف المسلم معنى من معاني الوحدة الوجودية فهي عنده وحدة الفضائل الالهية ووحدة التوحيد .

وقد يوفق المسلم الصوفي بين الظاهر والباطن فيقول ان الشريعة من غير الحقيقة رياء وكذب . وان الحقيقة من غير الشريعة اباحة وفسوق .

وقد يوفق بين الأمور الدنيوية والأمور الأخروية بمذهب جميل معتدل بين الطرفين . فليس الزاهد عنده من لا يملك شيئا ، بل الزاهد عنده من لايملكه شيء . فهو مالك للدنيا غير مملوك لها بحال .

وبعد فان المهاتما غاندي لم يخطيء حين قال : اننا في زمن الجحود بحاجة الى هذه الروح الصوفية التي تعبر عن جوهر الدين لجميع المؤمنين .

ان أناسا من أبناء العصر الحاضر يحسبون أن الصوفية بقضها وقضيضها تراث قديم مهجور ، ولكنهم يعلمون كل يوم ، وسيعلمون غدا ، أن الانسان لن يستغني في حياته يوما واحدا عن الصوفية في ناحية من نواحيها ، لأن رياضة النفس ضرورة لازمة كرياضة الجسد ، وأكبر ما يلقاه الناس من عنت في العصر الحاضر فانما هو افلات زمام الانسان العصري من يديه ، ولاغنى له يوما عنذلك الزمام ، ولا غنى له في سياسة جسده عن بعض الحرمان باختياره ، وعن بعض الشدة برضاه ، وأحرى أن يكون ذلك شانه في سياسة النفوس .

مؤلفات إسلامية أثرت في الفكر العالمي

طريق النور من المشرق الى المغرب ..

وهى كلمة من قبيل تحصيل الحاصل أو اللعب بالألفاظ ، اذا أريد بها النور الذى ينبعث من الشمس أو من كواكب السماء ، فانما يطلع الكوكب من مطلعه ويغرب فى مغربه على كل حال .

ولكنها حقيقة التاريخ الكبرى اذا أريد بها نور الفكر أو نور الضمير . فما من حضارة من الحضارات الانسانية الأولى ، الا وقد نشأت فى المشرق ثم اتخذت طريقها الى المغرب بعد حين .

من الشرق أخذ الغرب لغاته الآرية والطورانية ، ومنه أخذ حروف الكتابة ، ومنه أخذ أرقام الحساب ، ومنه تعلم صناعات العمران كالزراعة والنسيج والملاحة وتربية الحيوان .

ومن الشرق أخذ الغرب دياناته الحاضرة والغابرة ، فقبل الديانات الكتابية كانت للغرب ديانات وثنية ، وكان أهمها وأدلها على المعرفة ما تعلمه من الشرقيين ، ولا تزال أسماء الأيام الى الآن منسوبة الى الأرباب السماوية كما عرفها البابليون الأقدمون ، ولا يزال الأسبوع محسوبا كما كان يحسبه الفلكيون الشرقيون قبل ثلاثة آلاف سنة ، ولا يزال اسم « أوربة » نفسه مأخوذا من كلمة شرقية سامية قديمة بمعنى الغروب !

والحضارة الاسلامية احدى هذه الحضارات التى انتقلت من المشرق الى المغرب ، وهى أكبرها أثرا من جميع الوجوه ، لأنها أطولها زمنا وأوسعها نطاقا وأكثرها امتدادا فى بلاد القارة الأوربية .

ولقد مضى على الغرب خمسة قرون ، من القرن العاشر الى القرن الخامس عشر ، لم يعرف فيها المعرفة الا من المؤلفات الاسلامية ، ومن هذه المؤلفات عرف تراثه القديم من حكمة اليونان .

ولا نحصى كل هذه المؤلفات لأنها كثيرة متفرقة ، والمعدوم اليوم منها أكثر من الموجود . ولكننا نذكرها اجمالا ونكتفى بالاشارة الى المعروف منها الآن .

فكتاب القانون لابن سينا ، وكتاب الحاوى للرازى ، كانا عمدة الأطباء والعلماء الى القرن السابع عشر ، وكانت جامعة لوفان تعتمد على هذين المرجعين فى التطبيب والعلم الطبيعى الى ما بعد سنة ألف وستمائة . وقد ذكر جوستاف لوبون أن كتاب « التعريف لمن عجز عن التصريف » لأبى القاسم خلف بن العباس ـ كان مدرسة للجراحين الاوربيين جميعا بعد القرن الرابع عشر ، وقد طبع بعد ذلك بقرن باللغة اللاتينية ، وكان الأطباء قبل ذلك يقرأونه باللغة العربية أو يستعينون على فهمه بمن يعرفها .

وليس أدل على تقدير الغرب لابن سينا ـ على التخصيص ـ من نقش صورته على جدران الكنائس واعتباره من أعلام الانسانية فى جميع العصور .

ومؤلفات ابن رشد فيما وراء الطبيعة ، وفى العلوم الطبيعية ، لم تزل مرجعا للعلماء الى القرن السادس عشر ، ولم يزهد فيها العلماء وطلاب العلم بعد تحريمها عدة مرات .

وقد كان للمؤلفات الاسلامية أثر فى توجيه الفكر العالمى الى نتائج عملية من أعظم النتائج فى تاريخ العالم قديمه وحديثه ، واحدى هذه النتائج التى لا شك فيها كشف القارة الامريكية .

ان الروايات التاريخية عن اقتحام العرب للمحيط الأطلسى ، أو بحر الظلمات كما كانوا يسمونه ، متعددة متواترة لا موجب للشك فيها ،

وبعضها يذهب الى القول بوصول الملاحين العرب الى الشواطىء الأمريكية ، وبعضها يصف الجزر التي بلغوها وصفا يطابق المعلوم عن الجزائر الموجودة في هذه الأيام . ومن القرائن التي يستدل بهـــا على وصولهم اليها أن كولمبس جاء من أمريكا بذهب يخالطه النحاس على النسبة ، وبالمقدار الذى يجرى عليه خلط الذهب فى غانة الافريقية . ولكننا على هذا كله لا نعتقد أن ملاحين من العرب وصلوا فعلا الى أرض القارة الأمريكية ، وليس فى جميع الروايات دليل قاطع على وصولهم اليها ، والرأى الأصح أنهم حاولوا ولم يصـــلوا ، وان طائفة منهم هلكت فى الطريق ، وهم الذين يسمونهم بالمغررين ، من تغريرهم بأنفسهم ومخاطرتهم بالحياة .

أما الأمر الذى لا شك فيه فهـو أن الفكرة التى نهضـت بكولمبس الى تلك السياسة الخالدة انما كانت فكرة علمية مســـتمدة من المؤلفـــات الاسلامية ، وأجدرها بالذكر فى هذا المقام كتب الفلك والجغرافية ، فلولا اقتناع كولمبس باستدارة الأرض لما خطر له أن يصل الى الهند من طريق الغرب ، ولم تكن فى ايطاليا واسبانيا ــ يومئذ ــ مؤلفات تشرح هذه الفكرة غير المؤلفات الاسلامية .

كان معول الغربيين فى علم الفلك على الكتب الاسلامية ، وبقيت أســماء المنازل الفلكية ، وأسماء بعض النجوم ، عربية الى هـــذه الأيام ، ومنها الراعي والذنب والساهور والنسر الواقع ورجل الجبار ، وعشرات غـيرها من الأســماء . بل بقيت عندهم أسماء منقـولة عن العربية مع الخطأ فى ترجمتها لأنهم صحفوها فى القراءة ، فأخطأوا فى قراءة « الفرود » بالفاء بمعنى النجوم المفردة ، وقرأوها القرود بالقاف وترجمت من أجل هـــذا الخطأ بالقــرود .

وقـد كان الرياضيون والجغرافيون من المسلمين يقولون كمـــا قال المسعودى فى مروج الـذهب : « ان الشمس اذا غـــابت فى جـــزائر (الأوقيانوس) كان طلـوعها فى أقصى الصين ، وذلك نصـــف دائرة الأرض » .

وكانت كتب الادريسي شائعة في المغرب ، وكان اسم الخريطة نفسه مأخوذا من العربية ، لأنهم كانوا يرسمون المصورات الجغرافية على قطعة بخرطونها من الجلد ، وتسمى من أجل ذلك بالخريطة ، وكان الجلد - ولا يزال - يسمى « بالموروكو » نسبة الى مراكش التي تصنع فيها تلك الجلود ·

فاذا حسبت آثار المؤلفات الاسلامية في الفكر العالمي . وجب أن يكون هذا الأثر في مقدمتها ، لأنه الأثر الذي كشف الكرة الأرضية لسكانها ، ودلهم على جانب منها يسمى الآن بالعالم الجديد ·

وللحكيم الاسلامي - محيي الدين بن عربي - أثر كبير في التصوف العربي ، وفي فهم الغربيين لطبائع العالم الآخر . وأكبر تلاميذه من المتصوفة « اكهارت » الألماني ، وقد نشأ بعد محيي الدين بنحو قرن من الزمان ·

أما آثار الغزالي في حكمة الغرب فقد بدأت بمذهب « دافيد هيوم » في مسألة الأسباب ، وانتهت الى المذهب العلمي المتفق عليه في العصر الحاضر . وخلاصته أن الأسباب ظواهر تقترن بالنتائج وتظهر معها على التكرار . ولكنها لا توجدها ، ولا تتوقف النتائج عليها لزاما بحكم التفكير الصحيح ·

ومن المؤلفات الهينة جدا علينا كتاب يقرأه الألوف من الصغار والكبار ، ويقبل عليه الغربيون في العصر الحديث اقبالا يفوق كل اقبال على أمثاله وذلك هو كتاب « ألف ليلة وليلة » المشهور ·

هذا الكتاب كان له أثر هائل في انقلاب النهضة الايطالية ، ثم النهضة الأوربية ، وكان له شأن كبير في حركات الاصلاح بين الدعاة الدينيين ·

وانما حدث منه ذلك الأثر على غير قصد من المؤلفين له وممن قلدوهم أو نسجوا على منوالهم من كتاب الايطاليين ·

فالأديب الايطالي « بوكاشيو » « قلد » ألف ليلة في كتابه المسمى بالصباحات العشرة ، وجعله قصصا تروى في عشرة أيام ، وكل يوم

منها تروى فيه عشر قصص ، وأكثر هذه القصص تعريض بالمنافقين المتسببين الى رجال الدين ، وسخرية بذوى المقامات وما يستتر فى حياتهم الخاصة من الآثام والموبقات • ويقول المؤرخون بحق ان هذا الكتاب زلزل دعائم المجتمع فى عصره ومهد الطريق للانقلاب الخطير فى نظام الدولة ومعاهد الزعامة والسلطان •

ويشبه هذا الكتاب كتاب آخر ألفه الأديب الأسبانى « سرفانتيز » وسماه الدون كيشوت وقال انه ترجمه من نسخة عربية ضاعت منه بعد الترجمة ، ولم يكن سرفانتيز جادا فى دعواه ولا فى زعمه أن ذلك الكتاب مترجم من نسخة عربية ، ولكنه على التحقيق مستفاد من المطالعات العربية والأقاصيص المسموعة عن العرب ، وكثير من أمثاله يكاد أن يكون ترجمة حرفية للأمثال المتداولة بيننا الى اليوم •

ويلحق بالمؤلفات فى هذا النوع كتاب قديم فى تاريخ تأليفه ، حديث فى تاريخ ترجمته ، يمتاز باتساع الصدى فى الغرب كله من القارة الأوربية الى القارة الأمريكية ، ولا يضارعه فى سعة انتشاره كتاب مثله من تأليف الشرقيين أو تأليف الغربيين •

ذلك الكتاب هو رباعيات عمر الخيام •

وليست رباعيات الخيام مؤلفا اسلاميا بموضوعه ، ولكنها تحسب من المؤلفات الاسلامية لانتسابها الى مؤلف مسلم فى بلاد اسلامية ، وقد تلقاه الغرب كما يتلقى كتب الوحى المنزل ، وتتابعت الطبعات منه فى كل لغة ترجم اليها ، وبلغت النسخ المطبوعة منه مئات الألوف ، بل لعلها بلغت الملايين فى اللغات المتعددة ، وغالى بعضهم بنسخته من هذه الرباعيات فنقش كل صفحة منها نقشة فنية محتفلا بصناعتها ، ورصعها بالجواهر الملونة ، وجعلها فعلا ومجازا ذخيرة من الذخائر النفيسة التى لا يفرط فيها من يقتنيها •

ولا يقال عن رباعيات الخيام انها من المؤلفات التى خلقت فكرة جديدة ، أو وجهت الأفكار الى اتجاه جديد ، ولكنها تعد من الكتب المعبرة عن

زمانها ، وكأنما صادفت الغربيين وهم يتلفتون الى الشرق ليهتدوا بهديه ، وجاءتهم على حين حيرة واضطراب وعجز عن النفاذ الى حقيقة الوجود ومعنى الحياة ، فلم يجدوا فيها بغية العقول والضمائر ، ولكنهم أدركوا منها غاية حيلة المحتال الذى ليست له حيلة يطمئن اليها ، اللهم الا أن يهرب من أفكار كلها شكوك ،، الى متعة نفسية أو حسية لا شك فيها ، ويقاس رواج هذا الكتاب بمقاييس شتى . يكفينا منها فى هذا المقام اسم الجنرال عمر برادلى الأمريكى ، فانه مسمى على اسم عمر الخيام .

على أن المؤلفات التى تنسب الى حضارة كبيرة ـ تحسب لها آثار عامة غير آثار المؤلفات كتابا كتابا وقطعة قطعة ، وهكذا كان للمؤلفات الاسلامية فى جملتها أثران شاملان : وهما الحرية الفكرية وتوحيد لغة المعرفة ولغة الأمة . فقد رأى القراء الأوربيون كتبا تعالج كل مسألة ولا تتوقف عن البحث فى شأن من شئون العقل والمعرفة العامة ، ورأوا كذلك أن العالم المسلم يكتب للقارىء بلغة أمه وأبيه لا بلغة أجنبية عن فكره ولسانه ، وقد كان الأوربيون يعتقدون بحكم العادة أن كتابة العلم والحكمة لا تجوز بغير اللغة اللاتينية ، فلم يجترىء أدباؤهم على الكتابة بلغتهم الا بعد قيام الحضارة الأندلسية الى جوارهم وشيوع الكتب الاسلامية بين المتعلمين .

ومن الحق أن نقول ان الحضارات جميعا تأخذ وتعطى وتفيد وتستفيد ، والحضارة الاسلامية ، على هذه السنة الشاملة ، قد أخذت كثيرا وأعطت كثيرا ، ولكنها اذا وضعت فى الميزان كان مالها أكثر مما عليها ، وكانت لمؤلفاتها آثارها الكبرى فى ابانها ، وآثارها الباقية فى العصر الحديث .

الإنسانية من ماضيها إلى مصيرها

ماضى الانسانيه مسافة شاسعة ، بعيدة الآماد والأطراف ، سواء حسبناها بالأيام ، أو بالأماكن ، أو بالأنفس أو بالأوراق المكتوبة عنها ، لن يكون الحساب الا بالملايين وأضعاف الملايين ·

ولكننا نحسب مع هذا أنها على اتساعها وامتدادها ، قابلة للتلخيص فى سطرين ، اذا كان لها معنى ·

فاذا كانت حياة الانسانية عبثا ، ولم يكن لها وجهة ولا نظام ، فذلك مما يقال فى سطر واحد ·

واذا كانت ذات وجهة منتظمة فهذه الوجهة تتلخص في فكرة كبيرة ، وهذه الفكرة الكبيرة توضع فى كلمات معدودات ، ولو بالعنوان ·

هذه المحاولة هى التى حاولها عالم من أكبر علماء التاريخ فى زماننا ، أن لم يكن من أكبر علمائه فى جميع الأزمنة ، وهو الأستاذ « أرنولد توينبى » صاحب الكتاب المشهور المسمى « بدراسة فى التاريخ » ·

بدأ المؤلف العلامة تأليف هذا الكتاب فى سنة الف وتسعمائة واحدى وعشرين ، بعد نشوب الحرب العالمية الأولى بسنتين ، وأتمه وأصدر آخر أجزائه قبل ختام السنة الماضية ، فانقضى عليه فى تأليفه ثلث قرن كامل ، وتم الكتاب كله فى عشرة أجزاء لا تقل صفحاتها عن سبعة آلاف صفحة ، ولم ينته من أجزائه الأخيرة حتى بدا له أن يعيد النظر فى بعض الآراء التى ظهرت فى الأجزاء الأولى ، ولكن المهمة شاقة والتكاليف كثيرة · فتبرع له بعض المعاهد العلمية بالنفقة اللازمة للسياحة فى مواطن الحضارات الدائرة والاقامة حيث تلزم الاقامة زمنا بين آثار المكسيك والشرقين الأقصى والأدنى ، ولا تنتهى هذه السياحات التاريخية قبل سنتين من ظهور آخر جزء فى الكتاب ·

مجهود من مجهودات الجبابرة ، وعلم واسع يؤهل صاحبه للحكم على دلالة التاريخ الانسانى من مبتدئه الى عصره الحاضر ، أو يؤهله لاستخراج الوجهة المرتسمة من حوادث التاريخ ثم استخراج الفكرة التى تتجلى فيه عصرا بعد عصر وحضارة بعد حضارة ونزاعا بعد نزاع وسلاما بعد سلام ، وهذا هو الذى سميناه تلخيص التاريخ الانسانى فى سطر أو سطرين ، فماهى الفكرة التى يلخصها السطر والسطران فى رأى هذا المؤرخ الكبير ؟ ماهو الرأى الذى يراه فى تاريخ الانسانية أحق علماء التاريخ بابداء هذا الرأى فى القرن العشرين •

خلاصة هذا الرأى سطر واحد وهو « أن التاريخ هو طريق الانسانية الى الله »

هذا هو الاجمال الذى شرحه المؤرخ الكبير فى سبعة آلاف صفحة وقرر فى ذلك الشرح أن تواريخ الأمم والحضارات والعقائد والأخلاق لا معنى له ان لم يكن معناه هداية النفس الانسانية الى حرية الضمير برعاية الاله •

فكل أمة ، وكل حضارة ، وكل عقيدة • فانما تأتى لترفع فى الطريق مصباحا صغيرا أو كبيرا ينير الطريق وينير ساحة الكون كله للعلم بحقائق الوجود ، أو للعلم بحقيقة الحقائق وهى مصدر الخلق والتدبير فى الوجود •

ومن تقريرات المؤرخ الكبير أن الانسان قد يصطنع الأعمال والحرف ويخلق العلوم والمعارف ، ولكنه لا يخلق عقيدته الدينية بل تأتيه العقيدة مفروضة على سريرته وشعوره ، قابلة للبحث فى بعض جوانبها غير قابلة لشىء سوى التسليم فى جوانبها الكبرى ، ولهذا تسخره العقيدة ولا يسخرها كما يهوى ، وان خيل اليه أنه يعمل فى تسخيرها بهواه •

وضرب المثل لذلك بعقيدة الاسلام : أراد الفرس الذين دخلوا الاسلام أن يستخدموها فى احياء القومية الفارسية فاستخدمتهم هى فى توطيدها ودراسة معارفها ، وجاء المغول الى بلادها من أقصى الشرق ليقيموا « سلطنتهم » على أركانها فأصبحوا حراسا لتلك الأركان ، ولا يتأتى تسخير عقيدة ما الا اذا غلبتها عقيدة أقوى منها وأحق بالعمل فى تاريخ

الانسـانية ، فليس أقـوى من الايمان على تسيير الانسان والارتقاء به على معارج الحضارة فى طريقه الى الله ٠

وعند العلامة « توينبى » أن هذه المهمة الأبدية مهمة « تعاون » بـين الحضارات والعقائد ، يؤدى كل منها بعض الواجب لتحقيق الواجب كلـه فى النهاية ، ولكن هذا الواجب الكبير يكبر مع الزمن كلما كبر الانسان ، فلا يزال الانسان فى سعى متواصل ، ولا يزال متطلعا الى الكمال ٠

وستأتى القرون بعـــد القرن العشرين فلا تذكر منه أنه قرن الصناعة الكبرى ، ولا أنه قرن الطيارة وعجائب المخترعات ٠٠ كلا ٠٠ بل لا تذكر منه أنه قرن الذرة والقذيفة الذرية ٠ وانما تذكر أنه القرن الذى أصبحت فيه الدعوة الى « الأخوة الانسانية » موضوعا من موضوعات العلم والعمل ، وبرنامجا من البرامج الواقعية التى يتعاون عليهـا الأقـوياء والضعفاء ، ولا يستغنى فيها قوى عن ضعيف ٠

هذه هى أمانة المـاضى لدى القـــرن العشرين فى رأى مؤرخ القـــرون والأجيال ، فما هى أمانة القرن العشرين يا ترى لـدى القرن الحـــادى والعشرين أو الثانى والعشرين أو ما يلى من القرون ؟

هل جاء القرن العشرون يا ترى ليحمل لها الهـلاك والـدمار فى قذائفه الذرية أو جاء لها بمصير أكرم وأسلم من هذا المصير ؟

وهنا ننتقل من ماضى الانسانية الى مصيرها ٠٠

ننتقل الى المصـير بمثـل السرعة التى انتقلنا بها ــ مع العلامة توينبى ــ فى مواضى الانسانية جميعا الى وجهتها المرسومة ٠

ولكننا لا ننتقل الآن فى صحبة توينبى ودراسته التاريخية ٠ بل ننتقل بين الحاضر والمصـير فى صحبة المئات من المتسائلين الحائرين ، وان العلماء بين الحائرين لأكثر من الجهلاء ، وان الحكماء لأكثر من الحمقى ٠

مئات من الناس يتساءلون اليوم : ما مصير الانسانية !

وكلما حدث حادث فى كتلة الشرق أو كتلة الغرب عادوا الى السؤال المتكرر المتحير : ما مصير الانسانية !

هل تنفجر براكين الحرب العالمية ؟

واذا انفجرت هذه البراكين فهل يستخدمون فيها القذائف الذرية ؟

واذا استخدموا فيها هذه القذائف الجهنمية فما نتيجتها بالنظر الى المنهزمين ؟ وما نتيجتها بالنظر الى المنتصرين ؟ ومانتيجتها بالنظر الى سائر الأمم التى لا تحسب مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ؟

بل يتساءل المتسائلون المتحيرون : هل يكون فى تلك الحرب المرهوبة منتصر ومنهزم ؟ وهل تبقى من الدنيا بقية تساوى ثمن النصر وتكافىء وبال الهزيمة ؟

ويحق للمتسائل العالم قبل الجاهل ، والحكيم قبل الأحمق ، أن يحار فى العاقبة وأن يفزع من المصير .

فمن المتفق عليه أن قذيفة « هيروشيما » تعد سلاحا مأمونا بالقياس الى القذائف المجهزة للاستعمال فى الوقت الحاضر . فان لم تكن هذه القذائف مجهزة فعلا ففى الامكان أن تجهز القذيفة التى تساوى فى قوتها خمسة وعشرين ألف ضعف وزيادة ، من قذيفة هيروشيما .

ومن المتفق عليه أن أخطار القذيفة الجهنمية لا تنحصر فى موضعها ، ولا فى المقصودين بها ، لأنها ترسل فى الهواء ذرات من القوة الاشعاعية تعود فتنحدر الى الأرض غبارا صاعقا لا يبقى ولا يذر .

ومن المتفق عليه أن مجال الاختراع متسع متجدد ، وان القذيفة الهيدروجينية ستتبعها أنواع شتى من القذائف ، وان استخدام العناصر الأخرى فى توليد الطاقة الذرية قد يتيسر غدا لأمم كثيرة ، ولن يكون

استخدام هذه الطاقة مقصورا على عنصرين أو ثلاثة ·· ويومئذ تقل تكاليف القذائف وتتسع ميادينها وتتفاقم أخطارها ، وتصبح القذيفة الموجودة اليوم كأنها سلاح الأمس بالنسبة الى أسلحة القرن العشرين ·

ما مصير الانسانية بعد هذه النذر والأراجيف ؟

لا فائدة من منــع الســلاح ، بل الفائدة المرجوة كلها معلقــة فى رأى الخبراء على منع الحرب بأنواعها، أو منع الحرب العالمية بكل ما يستطاع ·

فهل منع الحرب العالمية مما يستطاع ؟

واذا لم يكن مستطاعا فهل يستطاع منع السلاح الذرى وتحريم القذائف الذرية فى جميع الميادين ؟

ان سوابق الدول فى الحروب لا تبتشر بالخير ، ولكن سابقة واحدة يرجى أن تبعث التفاؤل فى نفوس طلاب الخير ، وهى تحــريم الغازات السامة واجماع الدول على اجتنابها فى الحــرب الأخيــرة · فاذا كانت الــدول المقاتلة قد فهمت أن الغازات الخانقة خـطر لا يؤمن فهى أحـرى أن تفهـم الخطر الأكبر ، وأن تحرص على اجتنابه حرصا أشد وأبقى من حرصها على اجتناب تلك الغازات ·

وعبرة أخرى قد تميل بالدول الى الحذر من الحــروب ، وهى خســارة المنتصرين فى الحروب واضطرارهم الى معونة المنهزمين والمنكوبين ، فى عالم متشابك متضامن ، لا ينفرد فيه بالضرر صاحب قوة او صاحب مال ·

ونكاد نقول ان ساسة الدول يدفعون بالأمم الى الانتحار اذا اقدموا على الحرب العالمية واستخدموا فيها القذائف الذرية·· ومتى استطاع ساسة الأمم أن يدفعوا بها الى الانتحار فهم والأمم التى تطيعهم أهل للهلاك والدمار ·

ان الصورة التى تتمثل لنا أبشع من ان نتصورها قياسا على ما عرفنــاه من كوارث الماضى والحاضر ، وتكاد تخرج بنا من حيز الواقع الى حيز الخيال

المستحيل ، ولو أن صورة تستحيل في العقل لفرط بشاعتها لاستحالت هذه الصورة المنكرة ، ولكن البشاعة المفرطة لا تمنع شيئا أن يكون اذا كان وقوعه من الممكنات • وكل ما لدينا من أسباب الطمأنينة أن نقارن بين المصيرين أيهما أقرب الى الامكان : مصير الانسانية الى الانتحار أو مصيرها الى التغلب على قوة السلاح بقوة الحكمة وقوة الأخلاق مجتمعتين • ومن حسن الرجاء وحسن التقدير معا أن نرجح المصير المأمون على المصير المحذور •

ان المادة الصماء لم تخلق الانسان • لأن الشيء لا يخلق ماهو أحسن منه وأكمل • فلنعد الى خلاصة التاريخ الانساني متفائلين : ان التاريخ الانساني ـ كما قال أكبر المؤرخين العصريين ـ انما هو طريق الانسانية الى الله • وفي هذا الطريق يستطيع العقل أن يخلق اختراعا من جنس القذيفة الذرية يقاومها ويكبح شرورها ويستبقي منافعها ، ويستطيع العقل أن يأخذ بزمام المادة وعناصرها ليقترب بها الى الله •

خطر الدراسات الاجتماعية

يطلع حضرات المستمعين على المباحث الكثيرة التى تنشرها الصحف والمجلات ، تعليقا على حوادث الاجرام التى يقترفها بعض الشبان ، من الطلاب وغير الطلاب ، ومن المتعلمين وغير المتعلمين .

ففى السنوات الأخيرة لا ينقضى أسبوع دون أن نطلع على مبحث من هذه المباحث الصحفية ، عدا الكتب والرسائل التى يتوفر المختصون من العلماء على تاليفها وتدريسها ، وكثير منها مفيد لازم فى توجيه المصلحين الى العلاج القديم لهذه المساوىء الاجتماعية .

كانت هذه المباحث ناقصة فى المكتبة العربية وكنا نستزيد منها ..

وهى اليوم وافرة متعددة ولا نزال نستزيد منها على وفرتها وتعددها . ولكننا اليوم قد أصبحنا فى حل من التحدث عن أخطارها كما نتحدث عن أخطار الثروة بعد الخلاص من محنة الفقر والفاقة .

والواقع أن المباحث الاجتماعية قد أصبحت عندنا ثروة قيمة ، وأصبحت لها من بعض جوانبها أضرار كالأضرار التى تصاحب كل ثروة ، فلا حرج علينا اليوم فى الاشارة الى بعض هذه الأضرار .

ان المباحث الاجتماعية فى أسباب الاجرام قد أوشكت هى نفسها أن تكون سببا من أسباب الاجرام ، لأنها قد أوشكت أن تضعف الايمان بالمسئولية الشخصية ، وقد أوشكت أن تلقى التبعات جميعا على المجتمع . وأن تبرىء منها جناتها كأنهم « ضحية غير مسئولة » فى أحوالهم وأحوال المجتمع كافة .

كلما تعددت الجرائم قيل ان أسبابها ترجع الى ظروف المعيشة ، أو الى أساليب التربية ، أو الى زعازع الحروب والتطورات وما اليها ، أو القدرد

السيئة من أفلام الصور المتحركة والروايات المبتذلة ، وكدنا ننسى أن المجتمع قد يكون مجنيا عليه في بعض الأحوال كما يكون جانيا في الأحوال الأخرى ، وقد يجني الأفراد عليه كما يجني هو على الأفراد · اذ ليس المجتمع شبحا ضخما مستقلا عن أفراده يبطش بهم وهو آمن منهم أن يمسوه بسوء · بل هو على كل حال مجموعة من أولئك الأفراد يسيئون اليه ويسيء اليهم ، ولا يصح على أية حال أن يتجردوا من تبعاتهم وجرائر أعمالهم فيما يجنونه عليه ·

ولنفرض أن بحرا من البحار كثرت فيه السفن الغرقى وذهب الخبراء يبحثون عن أسباب غرقها ·· ثم عادوا يتكلمون عن الزوابع والأعاصير ، أو عن الأمواج والتيارات ، أو عن الصخور الكامنة في جوف الماء ، أو عن الغيوم التي تحجب النجوم الهادية في أجواء السماء !··

لنفرض انهم أصابوا فيما وصفوه ولكنهم لم يذكروا لنا شيئا عن ربابنة السفن هل هم على علم بفنون الملاحة أو على جهل بتلك الفنون ، ولم يذكروا لنا شيئا عن أخشاب السفن وحدائدها هل هي صالحة لبناء السفن أو غير صالحة لهذه الصناعة ، ولم يذكروا لنا شيئا عن الوقود ، أو عن الأزواد ، أو عن وزن الحمولة ، أو غير ذلك من العيوب التي تتعلق بالسفن ومن يديرونها ولا تتعلق بالزوابع والأمواج ومسالك البحار ·

لنفرض أننا قرأنا تعليل الغرق الكثير في ذلك البحر لعيوب البحر دون عيوب السفن ومن يبنيها ويسير بها ، فهل يغنينا هذا التعليل ؟ وهل نأمن أن يصبح هو نفسه علة لكثرة الغرق وستر الجناة وتجدد أسباب التقصير الى غير انتهاء ؟

ان الدراسات الاجتماعية التي تحيل الأمر كله على المجتمع شر من دراسات الملاحة التي تحيل الغرق كله على الماء والهواء · فلا بد من حسبان المسئولية الشخصية ، في كل دراسة اجتماعية ، كائنا ما كان النقص الذي يعاب به المجتمع على هدى أو على ضلال ·

وليس أحب الى الجنـاة ، ولا أشد اغراء لهم بالجناية ، من اعفائهم من تبعاتها والقاء هذه التبعات على كل أحد غير من يجنيها • فمن قديم الزمن يكره الناس اللوم والمؤاخذة ويسرعون الى انتحال كل عذر مقبول أو غير مقبول • فاذا أصبحت الأعذار حجة علمية تتكرر على المسامع ليل نهـار ، فلا جرم يصدقها الجاني ويفرح بها ويستمرىء الجنـاية ويزعم انه ضحية تستحق الرثاء ، وانه صاحب حق ينتقم لنفســه من جناية المجتمع عليـه

ان الآفة كلها أن نلقى المســئولية عن كواهلنا ، وأن نتهـم المجتمعـات بذنوبنا ، وأحكم من حكماء الاجتماع في العصر الحاضر شاعرنا الذى قال قديمـا :

نعيب زمانـنــا والعيب فينــــا

ومـا لزمانـنـــا عيب ســـوانا

فالحق أن المســئولية الشخصية قد أوشكت أن تنسى فى العصر الحاضر ، مع أن الاصلاح كله لم يتحقق يوما ولن يتحقق غدا بغير الاعتماد على هــذه المســـئولية •

وليست هذه الآفة العصرية خلوا من أسبابها التى سلمت منها العصور الأولى • فان العصر الحاضر قد ورث هذه الأسباب من العصور المتأخرة ، وبالغ في الاستنامة اليها فلم يسلم من جرائرها •

منذ ثلاثة قرون ونحن لا نسمع حديثـا غير أحـاديث الحقوق المطلوبة والحقوق المهضومة ، أو نحن نسمع أحاديث الحقوق ولا نقرنهما بما ينبغى أن يقارنها من أحاديث الواجبات •

منذ ثلاثة قرون والعالم يسمع بطلب الحقوق على اختلافها ، فيسمع يوما بحقوق الرعية عند أمرائها وملوكها ، ويسمع تارة بحقوق الأمم المغلوبة عند الدول الغاصبة ، ويسمع حينا بحقوق الأرقاء وحينا آخر بحقوق الأجراء ،

ويسمع في خلال ذلك كله بحقوق المرأة وحقوق الانتخاب وحقوق المحكومين وحقوق الأمم والآحاد من كل قبيل ٠

وكل هذه حقوق لا شك فيها ٠٠

ولكن الشك كل الشك حين تقنع الانسان أنه يحق له كل شيء ، ولا يجب عليه شيء ! وانه يجوز له أن يطالب بالحقوق ولا يجوز لأحد أن يطالبه بالواجبات ٠

وعلى هذا يستطيع المؤرخ أن يقسم التاريخ كله الى شطرين متقابلين : شطر العصور الماضية وقد كان شعاره : يجب عليك ٠٠ وشطر العصور الحديثة وقدأصبح شعاره : يحق لك ٠٠ وهما كما رأينا نقيضان متقابلان ٠

كان الشاب في العصور الغابرة يسمع دعوة الواجب من كل صوت ٠

كان صوت الدين يقول له : يجب عليك ٠٠

وكان صوت البيت يقول له : يجب عليك ٠٠

وكان صوت الأب يقول له : يجب عليك ٠٠

وكان صوت الحاكم يقول له : يجب عليك ٠٠

ثم علت في العصر الحديث صيحة الحقوق فلم تزل بالناشئين في أجيالها حتى كاد الناشيء أن يقول : يحق لي كل شيء ولا يجب علي شيء ٠٠

فأين الصواب بين النقيضين ؟

كلا النقيضين طرف بعيد من الصواب ، فلا صواب في الايمان بالواجب وحده ، ولا صواب في الايمان بالحق وحده ، انما الصواب بينهما أن نؤمن بالمسئولية الشخصية وأن نربي الناشئين على الايمان بها ، لأنها هي قوام الحقوق والواجبات ، ولا أمل في اصلاح يتناول أخلاق المجتمع أو أخلاق الفرد بغير التعويل على هذه المسئولية ٠

لما قام موسولينى بدعوة الفاشية ظن الحائرون فى محنة الأخلاق أن الرجل قد اهتدى الى الترياق ، لأنه يروض الجيل الجديد فى بلاده على الطاعة العمياء ، فلا يلفظ بحق ولا يبحث عن واجب ، الا أن ينقاد لمن يقوده بغير سؤال ٠

وقلنا يومئذ ان الفاشية بهذه المثابة تهدم الأخلاق من أساسها ، ولا يرجى منها فلاح لأخلاق الناشئين حتى في الطاعة العمياء ٠٠ لأن الآلات تطيع والحيوان يطيع ، وكلاهما أفضل من الانسان فى هذه الفضيلة ان صح أنها فضيلة ، وانما يمتاز الانسان بطاعة المسئول أو طاعة الشعور بالتبعة والنهوض بها ، وعيناه مفتوحتان ٠

ثم جاءت ساعة الامتحان في أول صدمة ، فانهزم ثلثمائة الف من الذين رباهم موسولينى منذ الطفولة ، أمام عشرين ألفا على غير استعداد كبير فى ميدان الصحراء الغربية ، ولم يتعلم جنود الفاشية شجاعة الآلات ولا شجاعة الحيوان ، ولا شجاعة الانسان ٠

لأنهم نشأوا بغير أخلاق : نشأوا بغير مسئولية يشعرون بها ، بل هربوا من المسئولية لأنهم هربوا من الحيرة ومن الاختيار ، فكانت تربيتهم فى الحقيقة هروبا من التربية الصحيحة ، اذ لا تربية بغير أخلاق ، ولا أخلاق بغير تبعة ومسئولية ينهض بها الانسان على علم بحقه وعلى علم بواجبه ، وعلى هدى مما ينبغي له بين قومه وما ينبغى عليه ٠

وليس المطلوب أن نكف عن الدراسات الاجتماعية كلما كشفت لنا عن عيوب المجتمع التى تغرى بالجريمة أو تيسرها لمن يتورط فيها ٠

بل المطلوب الا تكون عيوب البحر مذهلة لنا عن عيوب السفينة وعيوب الربان ، وأن نذكر على الدوام أن السفن كلها لا تغرق ، وأن الناشئين كلهم لا يجرمون ، وانه اذا جاز أن يعيش الألوف أبرياء من الجريمة فقد وضح اذن أن الجريمة ليست حتما لزاما فى المجتمع ، وأن للمجرم مسئول

عن جريرة عمله ، وأن الأمناء على المجتمع مسئولون أن يحموه من شره ، وألا يجعلوا أعذار الجريمة سهلة مقبولة من طرف اللسان ٠

وخيرا يصنع الخبراء الاجتماعيون حين يثابرون على دراسة الآفات والعيوب في مجتمع هذه الأمة وفي غيره من المجتمعات ، وخيرا نصنع حين نذكر ما في هذه الدراسات من الضرر ، وحين نطالبها مرة بعد أخرى بالابقاء على ضمان المسئولية الشخصية . فلا كرامة للانسان بغير هذا الضمان ٠

فاكهة وفكاهة

من حق الفكاهة أن يكون لها نصيب من جميع المطالعات ·

واذا حقّ لها ذلك في مواسم السنة على اختلافها ، فهي أحق به في موسم الصيف ، اذ تشتاق النفوس حينا بعد حين أن تستريح من الجد الى الفكاهة، كما تستريح من حرارة القيظ بنسمة هواء ·

ومطالعتنا الليلة تجمع بين الفكاهة والفاكهة ، لأنها حديث عن البطيخ ، أو عن البطيخ بلفظه الصحيح ·

فنحن في مطالعة الليلة نذكر أن البطيخ فاكهة لها ماض ، أو فاكهة لها تاريخ ·

وهذه الكرات الخضر التي نراها مطروحة بالمئات على الأرض ، يحق لها أن نذكر أنها كانت فتنة الشعوب ، وأنها كانت طعاما سائغا للأنبيـــاء ، وأنها كانت محنة للحكماء من الشعراء ، وأنها قد صنعت من أجلها المعجزات في بعض الروايات ·

ولـكل حديث مناسبة ، فما هي مناسبة البطيخ في هذا الحديث ؟

منذ أيام كنا نطالع رسالة جديدة عن طغمة اسرائيل ، وكان صـاحب الرسالة يحصي الجهود التي يبذلها الصهيونيون لتعمير البر والبحر وزيادة الموارد من الثمرات والصيد ، فاذا في الطليعة من هذه الجهود جهودهم في توفير البطيخ وتوفير السمك الذي يغني عن اللحوم ·

ميراث قديم ، ان لم نشأ أن نقول انه داء قديم ·

فالمستمعون الـكرام يعلمون أن بني اسرائيل خرجوا من مصر الى وادي

التيه في عهد موسى الكليم ، وأنهم ذهبوا يشتهون الطعام لونا بعد لون ، وينفرون من كل طعام يرسله الله اليهم ، الا الطعام الذي تركوه ، وفي وادي النيل تعودوه ، ثم عافوه ، ثم استطابوه !

وكان اول ما اشتهوه البطيخ والسمك ، وهو اليوم بعد خمسة وعشرين قرنا يحسون فى دمائهم أثر تلك الشهوة ، كأنها لاتموت مع السنين ولا مع القرون ... فيجتهدون فى توفير البطيخ على الأرض ، وتوفير السمك فى المـــاء .

تقول التوراة فى سفر العدد : « وعاد بنو اسرائيل ايضا وبكوا وقالوا : قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجانا ، وتذكرنا القثاء والبطيخ»

قالوا ذلك لموسى عليه السلام ، بعد أن شقى بهم فى الخروج من وادى النيل ، فلا تسل عن ضجر نبيهم منهم ، وعن دعائه الى الله من أجله ومن أجلهم ، كأنهم الطفل المدلل الذى لاينتهى من شهوة حتى يشتهى غيرها ، ولايؤتى له بطعام حتى يعافه ويتمنى طعاما سواه ، وقال موسى فيما ورد من ذلك السفر : « لماذا لم أجد النعمة فى عينيك يارب حتى وضعت ثقل هذا الشعب جميعا على ؟.. ألعلى ... ولدت هذا الشعب حتى تقول لى : احمله فى حضنك كما يحمل المربى الرضيع ؟ » .

يقول شرّاح التوراة : « القثاء يطلق على الخيار وما يعرف عند بعض العامة ـ فى الشام ـ بالمقتى ، والبطيخ على أنواعه ، وهو من أحسن معـــدلات الحرارة الباطنية فى البلاد الحارة » .

ويقول الدكتور بوست فى قاموس الكتاب المقدس معلقا على هذه الكلمة « تنمو كل انواع البطيخ بكثرة فى الديار المصرية ، وفى ذلك حكمة الهيـــة لأنه مهما كان الظمآن فى تلك البلاد الحارة فقيرا يقدر أن يروى عطشـــه بأكله شيئا من البطيخ الرخيص الثمن ، والظاهر أن الاسرائيليين اعتادوا عليه واولعوا بأكله حتى أنهم لما خرجوا الى البرية واشتد عليهم الحر وهم سائرون فى صحراء بلاد العرب تذكروا بطيخ مصر وقالوا ياليتنا بقينا هناك فنروى عطشنا بتلك الفاكهة الطيبة .. » .

ونسى الدكتور بوست أن يقول ان بنى اسرائيل كانوا يقيمون بجوار المكان الذى يعرف الآن باسم الصالحية ، ولعلهم فتنوا ببطيخها من قديم الزمـــان .

وان هؤلاء القوم ليحسون ضعفهم أمام هذه الفاكهة المغرية ، وانهم ليعتذرون من هذا الضعف بالمبالغة فى لذتها واغرائها ، ويزعمون فيما زعموا أنها تصنع المعجزات بأيدى أنبياء التوراة .

فى جبل الكرمل حجارة تسمى الى اليوم بحجارة البطيخ ، لأنها تشبهه بالشكل واللون حتى لتحسب من بعيد كأنها مزرعة بطيخ .

فاذا سألت عن سر هذه التسمية قيل لك انها ترجع الى أيام النبى الياس رضوان الله عليه ، وانه خرج ظمآن ذات يوم فرأى فلاحا يحمل بطيخا شهيا راقه منظره ، وأحب أن ينقع ظمأه بشريحة منه .. فأنكره عليه الفلاح الخبيث وقال له : تلك يانبى الله حجارة وليست بطاطيخ .. !

قالوا : فمازاد النبى على أن قال : لتكن كما زعمت ، فكانت حجارة ، وألقاها الفلاح من حجره ، فهى الى اليوم فى ذلك المكان ، ولعلها احتفظت بعد المسخ بطبيعة النبات ، فتكاثرت وتدحرجت هنا وهناك حتى أصبحت تعد بالمئات .

نعم ... ولعل الصهيونيين يطمعون اليوم بمعجزات العلم أن يقلبوا معجزات النبوة ، فيخرجوا من تلك الحجارة بطيخها الذى أباه الفلاح على النبى الياس .

ويظهر أن هذه الفاكهة مسلطة على الاغراء والفتنة : فتنت شعبا يمشى مع نبيه فنسى النبى ونسى ربه ، وعلمت الفلاح البخل والكذب حتى استحقت أن تمسخ حجارة ، وأن تضرب بها الأمثال ، وأصابت حكيم الشعراء فى حكمته فعلمته البخل وأذهلته عن وصاياه التى يذكرها قراء العربية منذ ألف سنة ، ولن ينسوها ما بقيت لغة الضاد

كان أبو الطيب المتنبى حكيم الشعراء ، وكان يلقى البيت من الشعر الحكيم ، فتتجاوب به الآفاق ، ولا تزال متجاوبة به ، ولن تزال .

الا أنه بفضل البطيخ قد نسى الحكمة ، ولج فى الحماقة ، وأصبح سخرية الساخرين من رواة شعره الرصين .

كان يترفع ويتمنع ، ولكنه فى سبيل المال يتمرغ وينضرع ولا يتورع ، وحدث أن أميره سيف الدولة رمى في مجلسه بدرة من الدنانير ، فلما رآها الشاعر الحكيم تتناثر هنا وهناك ، تناثر معها لبه وطارت وراءها حكمته ، فهبط الى الأرض يدافع الخدم ويدافعونه ، ويشفق أن يفوته منها دينـــار يختفى تحت الحصير •

وسئل فيذلك فألقى الذنب كله على البطيخ ، أو هكذا زعم والعهدة عليه

قال : « وردت فى صباى من الكوفة الى بغداد ، فأخذت خمسة دراهم ، وخرجت أمشى فى السوق ، فمررت برجل يبيع الفاكهة ورأيت عنده خمســة من البطيخ باكورة ، فاستحسنتها وساومته ثمنها ، فازدرانى وقال لى : اذهب فليس هذا من أكلك •• فتماسكت معه وقلت : أيها الرجل •• دع ما يغيظ واقصد الثمن •• فقال : عشرة دراهم ! فلشدة ما جبهنى به وقفت حائرا ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل ••• واذا بشيخ من التجار لم يره صاحب البطيخ حتى وثب اليه وقال : يامولاى ! ها بطيخ باكورة ، هــل أحمله بأمرك الى منزلك ؟ فقال الشيخ : ويحك • بكم هذا ؟ فقال بخمسة دراهم •• قال الشيخ : بل بدرهمين ! •• فباعه الخمسة بدرهمين وحملها يقصد الى داره بعد أن دعا له وهو فرح مسرور •• فقلت له : يا هذا ما رأيت أعجب من جهلك ••تستام على فى هذا البطيخ ؟ وكنت أعطيتك فى ثمنــه خمسة دراهم فلم تقبل ، وتبيعه محمولا بدرهمين ؟

قال : فحملق فى وجهى وصاح بى : اسكت ، فهذا يملك مائة ألف دينار •• فتعجبت من أمره وقلت فى نفسى : ان الناس لايكرمون الا من ملك مائة الف دينار ، واعتمدت من وقتها أن يكون عندى مثلها •

كلام عجيب من شاعر الحكمة وحكيم الشعراء ، فان صدق او لم يصدق لقد جنى عليه البطيخ مرتين : أنساه الحكمة وأنساه الصدق فى علة ذلك البخل المعيب •

لاعجب اذن يتعظ الناس بهذه العظة ، ويتعلمون من هذه العبرة ، ويبالــغ العربى البليغ فى الذم فيقول عن الرجل الذميم : انه يدور بين المطـــابخ

والمباطخ ، أى أنه يشغل عن عقله ببطنه ، ويفرغ من صحاف الطبيخ ليقبل على صحاف البطيخ ، أو كما يقول الامام الليث فى رواية :

مـالى رأيت المبطخين أبطخوا   فأكلوا منه ، ومنه لطخـوا

ورحم الله شاعرنا حافظ ابراهيم ، لقد سمعته يقول عن « المنجة » انها لايحسن أن تؤكل الا فى حمام ، لأنه رحمه الله كان يمعن فى أكلها حتى يلطخ بهـا ثيابه ، فمن شاء فليفـــل مع الامام الليث : وكذلك البطيخ الذى رآه ... فرأى القوم يبطخون منه ويلطخون ..!

نعم ، وتسرى العبرة من بنى اسرائيل فى صحراء التيه الى بنى العروبة فى بطحاء مكة ، فيقولون ان التبطح خير من التبطخ ، ويعنون بذلك أن زيارة البيت الحرام خير من زيارة خوارزم والشـــام ، قضاء لفريضة من فـــرائض الاسلام ، وليقم من أقام بعد ذلك حيث أقام .

* * *

تلك طرائف من آثار الغابرين نعلم منها أننا نتكلم عن فاكهة لها ماض ، ولها تاريخ .

ثم نلتفت الى أحاديث الحاضرين عنها فنعلم أنها كذلك ذات حاضر يحييهـا وذات مستقبل يقاس على حاضرها وماضيها .

ولكنها على مايظهر تستفيد من مر السنين وعبر الأيام ، فهى اليوم تعلم الحكمة ولاتفتن الحكماء ، وأمثالها الشائعة محمودة العاقبة فى آدابنـــــا الشعبية التى تجرى على الألسنة ، وقلما نقرأها فى كتاب .

قيل ان يهوديا مرابيا نزل فى بلد من بلاد الصعيد ، وسمع عن أهله أنهم مشهورون بالحرص والتدبير ، فأعطى واحدا منهم قرشـا وقال له أنه يريد به طعاما وشرابا وحلوى وتسلية بعد الطعام وعلفا لدابته .. فجاءه الرجـل ببطيخة ، قال له انها طعام وشراب وحلوى ، ولبها للتسلية ، وقشرها علف للدابة ... وان صحت بقية القصة كانت البطيخة عصمة لأهل البـــلدة ، فان المرابى فارقها على الأثر ورجع من حيث أتى .

وقيل ان جحا مر ببستان فنظر فيه الى شجرة النبق تحمل ثمرها الصغير ثم نظر الى عروق البطيخ تنوء بحملها الكبير ، فرفع بصره الى السماء وناجى ربه قائلا : أما كان هذا أولى بموضع ذاك !

قالوا : ونام جحا ، فلم يلبث أن تنبه على وقع شيء أصاب رأسه ، فاذا هو نبقة ٠٠ وعلم أنها جواب اعتراضه ، فلو أنها كانت بطيخة لأصابت رأسه بدرس لاينساه ، أو لعله لايبقى حتى ينعم بذكراه ٠

وماذا نقول عن « البطيخة الصيفية ؟ » ٠٠ انها مثال الطمأنينة وراحة البال ، وهي من معدلات الحرارة في القلوب ، ان صح ما يقال في الأمثال ٠

بل يبلغ الأمر بهذه الفاكهة عند فلاسفة الغرب أن يجعلوها مثالا للعبقرية النادرة ، ويذكر الفيلسوف الأيقوسي دافيد هيوم أن الذكاء بين أهل الجنوب أكثر وأوفر من ذكاء أهل الشمال ، ولكنه يعود فيقول : ان ذكاء أهل الشمال كالبطيخة الحلوة تصح في كل خمسين بطيخة ولكنها تبلغ الغاية من الحلاوة ٠٠ أما ذكاء أهل الجنوب ، فانه كالخيار لافرق بين الحسن منه والردىء

الا أننا لانظن الفيلسوف موفقا في التشبيه والمقارنة ، فان البطيخة في شمال الكرة الأرضية فاكهة لاتستطاب ، ولكننا نحمد الله لأننا في الجنوب ، وفي الصيف ٠٠ فهي في مذاقها وفي الحديث عنها فاكهة في الأوان ٠٠٠

التصوف عند الغربيين في العصر الحاضر

مطالعتنا الليلة فى موضوع عالمى ٠٠

ويصح ان يوصف بأنه أكثر من عالمى ، لأننا اصطلحنا على وصف العالمية لكل شىء يشمل الكرة الأرضية ، أو يشمل الأمم الانسانية جميعا، فنتكلم عن الشهرة العالمية والشئون العالمية ، اذا كانت من مسائل الشرق والغرب أو مسائل القارات الخمس المصطلح عليها ٠

ولكن موضوع الليلة أكثر من عالمى بهذا المعنى ، لأنه يتناول عالم الدنيا وعالم الغيب ، ويتناول الأمور التى لا أول لها ولا آخر ، وليست مقصورة على الكرة الأرضية ، ولا على المنظومة الشمسية ، بل تمتد وراء ذلك الى غير نهاية فى الزمن ولا فى أجواز الفضاء ٠

موضوع المطالعة الليلة هو « التصوف » ٠

وقبل أن يرتاع أحد من حضرات المستمعين نبادر فنقول انه موضوع فى هذا العصر لم يحتكره رجال الدين ولا أصحاب الأسرار الدينية ، ولاتقرأه فئة محدودة من المتخصصين فى مسائل الفلسفة وما وراء الطبيعة ، بل هو من موضوعات كل يوم وكل طائفة من القراء المهتمين بالمسائل العصرية ،ولا ينقضى أسبوع أو شهر على الأكثر دون أن يظهر فيه كتاب سهل بسيط يناسب كل قارىء وقارئة ، وتدور عليه مناقشات فى البيوت والمجالس التى تعودت أن يكون حديثها فى الموضوعات اليومية العامة،كالسياسة والقصص ومناظر الصور المتحركة ٠

ونحن نتناول الموضوع أولا من هذه الناحية : ناحية الاقبال على البحوث الدينية فى العصر الحاضر ، فلا نتوسع فى شرح الآراء والمذاهب التى اشتمل عليها الكتاب ، بل نتوسع فى هذه الظاهرة الجديدة التى تلاحظ على أنواع الدراسات والقراءات فى هذه الأيام ، ولم تلاحظ من قبل على فترة من الزمن قبل الحرب العالمية الأولى ، ثم الحرب العالمية الثانية على الخصوص

هذه الظاهرة وحدها تستحق الاهتمام بها والتحدث فيها ، ونحن فى شهر رمضان ومن بعده نستقبل العيد ·

لماذا يكثر الاقبال على المباحث الدينية فى السنوات الأخيرة ؟

الجواب البسيط السريع على ذلك أن الاقبال عليها دليل على الحاجة اليها ، وهذه الحاجة اليها تلخص كل الأسباب وكل البواعث التى تدعو الى الاهتمام بأمر من الأمور ·

فى كل عصر من العصور يهتم الانسان بمعرفة المصير ، ويهتم بالوقوف على حقيقة الحياة ·

ان الناس فى القرن التاسع عشر ، وفى القرن الثامن عشر وفى القرن الأول للميلاد ، وفيما قبل ذلك من القرون ـ كانوا يهتمون بمعرفة مصيرهم ، ويهتمون بالوقوف على معنى حياتهم وحقيقة وجودهم ·

ولكنهم فى القرن الماضى على الخصوص ، خطر لهم أن العلم الحديث كفيل بمعرفة كل شيء ، وبالكشف عن كل سر ، وبالهداية الى أصل الحياة وحقيقة الوجود ، فتركوا كل بحث غير البحوث التى تنسب الى العلم الحديث ، وتركوا كل وصف غير الصفة العلمية لكل مسألة تستحق العناية وتحسب من المسائل الجدية الجديرة بالعقل الراجح السليم ·

بدأت هذه النزعة الجامحة فى أواخر القرن الثامن عشر ·

بدأت مع الثورة الفرنسية ، يوم خيل الى الناس أنهم يهدمون الدنيا من قواعدها ويعيدون بناءها من جديد ، وأنهم لأجل ذلك يغيرون الشهور والأيام ويستبدلون التقويم الجديد بكل تقويم قديم ·

وفي نوبة من نوبات الاندفاع مع التيار الجارف علت الصيحة بعبادة الحكمة ونبذ العبادات الأولى بجميع شعائرها وفرائضها ، وراح القائمون بهذه العبادة العصرية يبحثون عن تمثال حي للحكمة يعرضونه للأنظار

ويتوجهون اليه بالاعجاب ثم يرتفعون بالاعجاب مع الخيال والنشوة الحسية الى ماوراء الاعجاب : يرتفعون به الى العبادة والتقديس .

فاختار كهان هذا الدين فئة من الفتيات الجميلات ، وابتدأوا بأجملهن الآنسة كونديى Condeille الممثلة الراقصة بدار الأوبرا وأقاموها فى زينة شفافة بمحراب الصلاة في كنيسة نوتردام الكبرى ، وجاءوا بعدها بربات من الأنس يضارعنها فى الجمـــال ، ومنهن مدام مومورو Momoro زوجة الطباع المشهور ، والممثلة الآنسة مايار Maillard وزميلتها الآنسة أوبراى Oubray وخيل اليهم أنهم ظفروا بثروة من الربات والالاهات تغنيهم عن الأصنام القديمة وعن الاله الأعظم الذى يدان به فى جميـــع العبادات ..

كان ذلك فى الشهرين الأخيرين من سنة (١٧٩٣) .. أى فى أواخر القرن الثامن عشر وعلى مقربة من مفتتح القرن الذى يليه : عصر العلم والنور

ومضى على هذه الثورة ، أو على هذه النوبة ، قرن وزيادة على نصــف قرن آخر ، فلا حاجة الى الافاضة فى نتائجها والسخرية من حماقتها : حماقة الحكمة المعبودة ، فانها حماقة لاتخفى على الحكماء ، ولا على الحمقى فى هــــذه الآونة .

وانما نلخص النتيجة بظاهرة تتعلق ببلاد الثورة الفرنسية نفســـها : نلخصها بحكمة النابغين من كتابها ودعاة التحرير فيها ، وهم كتابها الذين اتجهت اليهم أكبر الجوائز الأدبية العالمية ، وكلهم غير منكرين ان لم نقل انهم كلهم مغرضون ... واذا شئنا التعبير الحرفى المحكم جاز لنا أن نقول انهم ليس فيهم من لم يسخر من حماقة عباد الحكمة فى محراب نوتردام !

ما الذى حدث فى القرن التاسع عشر مما غير هذا الاتجاه ؟

أما ان الاتجاه قد تغير فهو واقع لاشك فيه ، لأن تلك البداية وقفت عنـــد خطوتها الأولى فكانت هى النهاية فى حينها ، وجاء بعدها فيلسوف قضى

زمنا من حياته الناضجة فى مستشفى الأمراض العقلية ،فألف ديانة جديدة سماها الديانة الوضعية ووزعها بين الأنبياء الأسبقين فجعل لكل نبى حصة متتابعة ، وأياما وأسابيع يصلى فيها المصلون باسمه وعلى منهاجه ، ثم انطوى كتابه الذى بسط فيه هذا الدين : دين الحكمة من مستشفى الأمراض العقلية فليس من ينظر فيه اليوم الا على سبيل التسلية والاعتبار .

ذلك الفيلسوف هو « اوجست كونت » امام الوضعيين . وعبرته البالغة انه لم يستطع أن ينبذ الدين جملة ، فعلم الناس أنهم يحتاجون الى اختراعه ان لم يجدوه ، وانهم يفرضونه على أنفسهم طائعين ان لم يفرض عليهم مسلمين أو مستسلمين ..

ما الذى غير اتجاه العقل الانسانى فى القرن التاسع عشر ؟

الذى غيره هو العلم نفسه ، لأنه عرف حدوده وكفكف من غروره ، فهو اليوم يدعى ويتواضع كثيرا فى دعواه : يدعى أنه يصف ما يحسه ولايزيد

لانريد أن نقول ان العلم أخفق فى تعزية الانسان وتعمير قلبه وضميره ، كلا ، بل نريد أكثر من ذلك .. نريد أنه أخفق فى دعواه الوحيدة التى كان خليقا أن ينجح فيها ، لأن أصحابه كانوا يسمونه بالعلم «المادى» .. وهو اليوم لايعلم من المادة الا أنها حركة مجهولة فى فضاء مجهول .

نعم ، كل مادة تتركب من ذرات ، وكل ذرة تنفلق فتصبح شعاعا ، وكل شعاع هو حركة فى الأثير .. وما الأثير ؟ .. شىء كلا شىء .. ليست له حدود ولا أوصاف ولا مقادير يعرفها العلماء ..

فالعلم المادى لايعرف المادة الا فى هذه الحدود ، ومن الأدب اذن أن يتواضع كثيرا ، فلا يحتكر المعرفة ولاينكر على غيره أن يحاولوها حيث استطاعوا

وهذا هو الجديد على العلم الحديث ..

علم العلم أنه لايعلم كل شىء ، لأنه مقيد بالحواس ..

واذا كانت الحواس لاتعلم جميع الأشياء ، فهل يعلمها الفكر ؟

كلا أيضا ٠٠ لأن الفكر محدود ككل شيء في الانسان ٠٠

فلابد للمعرفة من وسيلة أخرى مع وسائل الحس ووسائل التفكير ٠٠

لابد لها من البصيرة ، أو من البديهة ، أو من الالهام ، وذاك هو مجال التصوف أو مجال الدين ٠ فهذه هي المعرفة التي يتعاون عليها الحس والفكر والالهام ٠

ومن ثم تكثر الكتابة اليوم في مسائل التصوف ومسائل الدين ، ومنها مباحث هذا الكتاب ، ومنها موضوع مطالعة اليوم ٠

هذا الكتاب يسمى « مقدمة للمقارنة في مذاهب التصوف » ومؤلفه الأستاذ جاك دي ماركيت Marquette وفصوله تتناول المقارنة بين تصوف الهند وتصوف اليونان وتصوف العبرانيين وتصوف المسيحية ، وتصوف الاسلام ٠

ونحن لانريد أن ننقل شيئا من صميم مباحثه ، ولكن هذا لايمنعنا أن نخرج بخلاصة من كل مذهب أو كل مجموعة من المذاهب ، وفي كل خلاصة دليل على شيء كثير ٠

فخلاصة التصوف الهندي تحذير المرء من شهواته وتحذيره من قمع هذه الشهوات بالعنف والقسوة ، فرياضة الرحمة هي مفتاح الحياة الأبدية ٠

وخلاصة التصوف اليوناني أن الله جوهر من العقل الخالص من شوائب الأجسام ، وأن التأمل في الحقائق هو سبيل الوصول الى الله ٠

وخلاصة التصوف العبري « اذا كانت مخافة الله تاج الحكمة فهي أيسر لباس المسكين » ٠٠ وخلاصته المستعارة من فلاسفتهم مذهب فيلون الحكيم الذي يقول ان الله خلق العقل ليعمل به في الموجودات ، ومنها الانسان ٠

وخلاصة التصوف المسيحي أن نجاة الروح لاتكون بغير نعمة من الله وبغير فداء ٠

وخلاصة التصوف الاسلامى شعبتان : شعبة تذهب الى اعتزال الدنيا لأنها باطل ، وتفنى فى الله لأنه هو الحق دون غيره • وشعبة أخـرى لاتعتزل الدنيا لأن الله سبحانه وتعالى يتجلى فيها ، وآياته التى يتجلى فيها هى سبيل الوصول اليه ، وهذه هى الصوفية المفضلة فى الاسلام : لا اهمال للدنيـا ولا انحصار فيها ، بل نفاذ منها الى الحق ، والى الكمال •

وخلاصة الخلاصات جميعا : أن الايمان سعادة الروح وأن المعرفةوالبصيرة قوام السعادة •

الأمان والاستقرار في الشرق الأوسط

مطالعتنا الليلة فى كتاب باللغة الانجليزية يسمى « الأمان والاستقرار فى الشرق الأوسط »

كتاب صغير لا تزيد صفحاته على مائة وسبعين صفحة من صفحات كتب الجيب ، ولكنه ـ على هذا الصغر ـ قد حوى من العجائب ما قل أن تحويه مكتبة حافلة بعشرات المجلدات ، ولا أزال كلما راجعته فى ذهنى أعجب ولا ينقضى عجبى من هؤلاء الذين كتبوه : كيف استطاعوا أن يجترئوا على كتابته بهذا الأسلوب وكيف استطاعوا أن يودعوه كل هذه الأعاجيب ؟

فمن أعاجيبه الأولى أنه على صغره، قد اشترك فى تأليفه عشرون كاتبا وكاتبة متطوعين كما يقولون ، ومدفوعين ولاشك الى غرض واضح كما يدل على ذلك اجتماعهم من أشتات متفرقة ، لخدمة ذلك الغرض المريب ·

والغرض الواضح ، المريب ، هو اقناع الرأى العام العالمى برأيهم فى استقرار الأمور فى الشرق الأوسط ، ورأيهم هذا خلاصته أن الاستقرار كله معلق على استقرار الدويلة الصهيونية : اسرائيل ·

وأعجوبة من أعاجيب الكتاب الصغير أن اسرائيل نفسها غير مستقرة · فكيف تكون دعامة الاستقرار فى الشرق الأوسط ، ثم فى الشرق كله ، وهى مثل مشهور فى القلق والاضطراب ؟

أعجب ما فى هذا العجب أن المؤلفين العشرين لا يجهلون هذه الحقيقة ، وانهم يشرحونها ببعض التفصيل ولا يكتمون منها الا الأمور التى لا ضير فى كتمانها ، لأنها متواترة على كل لسان ·

يقولون فى الفصل الثانى والعشرين : ان اسرائيل « قطر صغير نصفه صحراء ، يواجه مشكلات حربية واقتصادية ومالية ، وان عزلتها الطبيعية

قد أطبقت عليها العزلة الاقتصادية بين بلاد الشرق الأوسط ، لأن العرب يقاطعونها مقاطعة محكمة من حولها »

قالوا : « ولا يكتفي العرب باغلاق الأسواق في وجهها ، بل تمنع السفن التي تحمل اليها الأزواد أن تعبر قناة السويس كما تمتنع الواردات اليها من طريق العقبة » .

ثم قالوا : « ان أثر هذه المقاطعة اقتصادي ونفساني .. فان اسرائيل - لخوفها من الهجوم عليها - تجند سكانها جميعا للدفاع والاستعداد »

ثم قالوا : « وعلى اسرائيل أن تستورد من الخارج نصف طعامها . وقد كانت البلاد العربية في عهد الانتداب تزودها بالكثير مما تحتاج اليه ، فاصبحت حاجتها الى الذهاب بعيدا في طلب الطعام والوقود بأثمان اغلى كثيرا من أثمانها عبئا ثقيلا يستنزف مواردها ، وان تجنيد السكان جميعا على وجه التقريب ، للاستعداد والدفاع قد ألقى عليها تبعات ساحقة وهي حكومة ناشئة . فبلغت ميزانية الدفاع سنة ٥٣ - ١٩٥٤ نحو اثنين وأربعين مليون جنيه ، من جملة الميزانية التي تبلغ مائة وتسعة وخمسين مليونا ، ونحو عشرين ألفا من الجنيهات » .

ثم ذكر المؤلفون مشكلة المهاجرة واضطرار الحكومة الى تدبير الأعمال للمهاجرين بالأجور العالية التي يطلبونها ، وانها لجأت الى الاستدانة فبلغت جملة ديونها في سنة ١٩٥٣ نحو ٣١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ (ثلثمائة واثنى عشر مليونا من الدولارات » .

هذه المصاعب تضاف اليها مصاعب تحويل البترول عن أرضها لأنه يأتي من جهة العراق ، وتضاف اليها مصاعب الاصلاح الزراعي والانتظام التجاري ، وعظم الفارق بين الصادرات والواردات .

ومع هذا يكتب المؤلفون - المتطوعون - كتابهم هذا ليقنعوا العالم الغربي بتعليق الأمل على اسرائيل في توطيد السلام والأمان واستقرار الأحوال .

والى هنا هذا كلام عجيب غاية فى العجب ..

لكنه لا يستنفد كل ما فى الجعبة من هذه الأعاجيب ، بل يأتى بعده ما هو أعجب وأبلغ فى بابه من هذه الغاية القصوى ، ولا نهاية لهذه الغايات عند هؤلاء النصحاء المخلصين المتطوعين .

يأتى بعد ذلك العجب عجب آخر ..

يأتى بعده بيان الوسيلة التى تحقق ذلك الاستقرار . فما هى تلك الوسيلة التى اهتدى اليها النصحاء المخلصون المتطوعون ؟

هى وسيلة بسيطة لطيفة ..

هى اكراه العرب على الشراء من اسرائيل والبيع لاسرائيل ، والسماح لاسرائيل بأن تستغلهم وتكسب من أسواقهم مايعوض تلك الملايين .

هى تهديد العرب بقطع المعونة عنهم وضرب الحصار عليهم ، ان لم يبادروا بتسليم أسواقهم وبضائعهم للدويلة المنكوبة .. الدويلة التى عليها المعول كله فى الأمان والاستقرار .

أظن حضرات المستمعين يحسبون أن القوم قد وصلوا الى أقصى المدى فى سباق الأعاجيب ، وانهم عند هذا ويقفون فلا يقدرون على خطوة أخرى وراء هذا الأمد البعيد .

لكنه حسن ظن ، أو سوء ظن لا ندرى ، بذلك الينبوع الفياض الذى ليس له قرار .

فقد بقى على هؤلاء المؤلفين المبدعين أن يقنعوا العالم الغربى بضرورة اكراه العرب وتسخيرهم لخدمة اسرائيل . فما هى وسيلة الاقناع يا ترى ؟ ولماذا يهتم الغرب فى أمريكا وأوربا باستجابة ذلك الاقتراح ؟

السبب أيضا بسيط لطيف !

السبب أن اسرائيل حينئذ تستطيع أن تقمع العرب وأن تأخذ من أموالهم وأرزاقهم ما يغنى الصهيونيين عن المعونة الامريكية ٠

ففى وسع اسرائيل مثلا أن تنشىء طريقا بريا يضارب قناة السويس ، وأن تمده من العقبة الى البحر الأبيض المتوسط ، ولا يحتاج اتمام هذا الطريق الآن الا الى بناء سكة من بير سبع الى ايلات وقد أوشكت أن تتم ٠٠ والا الى مد السكة الحديد من مجدل الى بئر سبع ثم الى ايلات وبعضها الآن تحت التنفيذ ٠٠ والا الى بناء ميناء فى ايلات وقد شرع فيه ، والا الى مد الأنابيب من ايلات الى مصانع التكرير بحيفا ، وهو منظور ٠

هذا كله فى وسع اسرائيل لمضاربة قناة السويس ، ومن أجل هذا يجب على مصر أن تستأنف المعاملة مع القوم ، ويجب على الغرب أن يكره مصر على ذلك باسم الصداقة والولاء ٠

وليس هذا وكفى ٠٠ بل فى وسع اسرائيل أيضا أن تجند خمسمائة وخمسين ألفا من جنود البر والبحر والهواء عند الضرورة ٠٠ وقد تكون هذه الضرورة تهديدا للعرب فى حالة الحرب ٠٠ لأن المؤلفين يؤكدون أن العرب لا يحاربون مختارين !٠٠

ومن طرائف الكتاب أن مؤلفيه لا يقترحون اكراه اسرائيل على شىء من الأشياء ، بل الاكراه كله من نصيب العرب المساكين ٠ أما نصيب اسرائيل فهو استجابة مطالبها جميعا والبحث عن المطالب الخفية لضمها الى قائمة المطالب المستجابة ٠

فمن الواجب توزيع المهاجرين على البلاد العربية ، وليس على اسرائيل أن تقبل أحدا منهم لأنهم طابور خامس ، وانما عليها أن تعطيهم تعويضا من الأموال الأمريكية ، اذا أعطاها الامريكيون ٠٠ !

ومن الواجب على العرب أن يتحملوا نفقات التعمير سواء استفادوا منها أم لم يستفيدوا ٠٠ وترجمة هذه العبارة حرفيا هكذا : « ان البلاد العربية التى تتلقى الآن أو ترجو أن تتلقى رسوما عن استخراج البترول

ـ سواء أكانت من أعضاء هيئـــة الأمم المتحدة أم لم تكن منهـا ـ ينبغي أن تدعى للمساهمة في المهمة ، مع صرف النظر عن اشـــتراكها أو عـــدم اشتراكها فى فوائد البرنامج الدولى للتعمير »

ولا نزيد حضرات المســتمعين من هذه العجائب فقـــد سمعوا منها فوق الكفاية ، ولكننا نختتم عجائبها بما يبذو على الصـفحة الأولى من الكتاب : عشرون مؤلفا ومؤلفة ليس منهم صهيونى واحد ، يقترحون هـــذه المقترحات ويريدون من الناس أن يصدقوا أنهم متطوعون متبرعون غير مســخرين لأحد من المغرضين ‥ لئن صدقهم الناس فقد سبقوهم اذن فى ميـــدان الاعجاب والاغراب ٠

وبعد ٠ فهذه هى الصفحة من جانب هؤلاء المتطوعين المتبرعين ‥

فأما الصفحة من جانبها الذى تراه الأبصـــار جميعا ـ ان شاءت أن ترى ـ فخلاصتها فى كلمتين تناقض هذه المزاعم من الألف الى الياء ٠

الحقيقة التى لا ريب فيها أنه لا استقرار ، ولا يتأتى أن يرجى الاستقرار من ناحية اسرائيل ٠

فهى اذا بقيت كما هى الآن فانما هى مشـــكلة مجسمة مفعمة بأسباب القلق والاضطراب ‥

وهى اذا خلصت من مشكلاتها باستغلال العرب واكراههم على قبـول ذلك الاســتغلال ـ فأحمـق الحمقى من يظن أنه يمهد بذلك سبيل الأمان والاستقرار ٠

وقديما لم تستطع اسرائيل قط أن تعيش فى استقرار مع من حولها ولا مع من فى داخلها من صميم أبنائها ٠

فما استقرت اسرائيل بعد عرش داود ، وما استقرت على أيام المكابيين ، وما استقرت فى ظل الهيروديين ، وما عرف الزمن عشر سنوات فى تاريخ هذه الأمة بغير فتنة أو مشاغبة أو نزاع على أمر من الأمور ٠

أما الحاضر من شأنها فهو أبعد من ماضيها عن الاســـتقرار والسلام : بلاد لا قدرة لها على حماية حدودها الطوال الا باكراه جيرانها على الخضـــوع لعسفها وعدوانها ، ولا قدرة لها على اكراههم الا بتسخير الدول الكبرى فى خدمتها ، ولا قدرة لها بعد هذا وذاك على تمـــوين سكانها ولا على تمويل مشروعاتها ، ولا مستقبل لهـــا الا أن تعيش عالـة على الدنيا أو تستغل جيرانها وتسومهم الرضى والخضوع لكل مطمع من مطامعها ·

لما كانوا شيعب الله المختار لم يفلحوا فى بعض هذا ··· ففى كل هذا لن يفلحوا اليوم بنعمة من نعم الأرباب المحدثين : أرباب مهما يبلـغ من خطرهم لن يعطوهم ما لم يأخذوه من مالك الملك فى الأرض والسماء ·

لقد تجبر هؤلاء الأرباب حين قالوا : نحن خلقنا اسرائيل لتبقى فهى اذن باقية كما نريد ·

أما العـــرب فهم لا يتجبرون حـين يقولون : نحن لا نموت بايدينا ·· فمن أراد أن يملك آجال الأمم فى يديه فليفـعل أن اســـتطاع ، ولن يســـتطيع ·

المدينة الفاضلة في العصر الحاضر

مطالعة الليلة عن المدينة الفاضلة في العصر الحاضر ·

والمدينة الفاضلة فى جميع العصور حلم الناس وأمل المفكرين منهم وغير المفكرين : ينظر الناس الى مجتمعهم فيتمنون له كثيرا من المحاسن ويأخذون عليه كثيرا من العيوب ، ويتخيلون المجتمع الذى تتوافر له كل حسنة ويخلو من كل عيب ، فاذا هو المدينة الفاضلة كما نسميها فى لغتنا ، واذا هــو اليوتوبيا Utopia أو «لطوبى» كما نقلنا اسمها عن الغربيين ·

وتحفظ آداب الأمم أنواعا شتى من هذه المدينة الفاضلة : أشهرها مدينة أفلاطون فى الآداب اليونانية ، ومدينة الفارابى فى الآداب العربية ومدينة القديس اغسطين فى آداب القرون الوسطى ·

وكل هذه المدن مثال الكمال الذى لايتحقق على الأرض ، ومن أمثلتــه شروط الفارابى فى رئيس مدينته الفاضلة أن يكون تام الأعضاء ، جيدالفهم والتصور جيد الحفظ والفطنة ، حسن العبارة ، عالما متعلما ،عفيفافى المأكول والمشروب ، محبا للصــدق ، كبير الهمة زاهدا فى المال ، غيورا على العــدل ، قوى العزيمة ، جسورا لايحجم عن عمل يوجبه على نفسه ·

والفارابى نفسه يقول ان « اجتماع هذه الخصال كلها فى انسان عسر »

وشأن مدينــة أغســطين ومدينة أفلاطـون كذلك فى امتناع شروطها عــلى التحقيق ، الا بشروط أخرى تمهد لها وهى أيضا مما يمتنع تحقيقــه ، ولو بعد حين ·

هذه المدن الفاضلة موضوع كتاب حديث قيم ألفته سيدة ايطالية من أسرة معارضة للفاشية هجرت بلادها مع أهلها وهى فى الثامنة من عمرها ونشأت وهى مشغولة بأمر النظم الاجتماعية التى تسعد الناس أو تشقيهم ،لان هجرتها من بلادها كانت أول ما ســـألت عنه وعن أسبابه ، واجتهدت بقيــة

حياتها القصيرة في ادراكها ، وماتت وهي في الحادية والثلاثين بحسرة من هذه النظم التي يحسبها بعضهم آية في الكمال ويشقى بها بعضهم غاية الشقاء .

فالكتاب قصة انسانية ، والفكرة التي تتخلله تنضح بها نفس حية أحبست بها ألما وأملا ، ونظرت فيها مع بني الانسان من ماضيهم الى حاضرهم ، الى مستقبلهم الذي يتمناه لهم في العصر الحاضر نخبة من المفكرين والمصلحين .

وأحلام الناس بالمدينة الفاضلة ليست من العبث أو اللغو ، وان كانت من الأحلام الباطلة والأوهام الممتنعة أو المستحيلة .

فان العلم بأحلام الناس في عصورهم المختلفة انما هو في الحقيقة علم بتقديرهم للواقع ، وتقديرهم للأمل ، وتقديرهم للعمل الذي يستطاع أو لايستطاع ، ومن عرف مقاييس الواقع ومقاييس الأمل ومقاييس العمل عند الناس فقد عرف عنهم كل شيء وحكم على تطورهم في الحياة الاجتماعية والفكرية من حال الى حال .

وأيسر ما نعلمه من تاريخ هذه الأحلام أن النوع الانساني قد تطور كثيرا في آماله ومساعيه .

تطور « أولا » في التحول من الماضي الى المستقبل ، لأن الناس فيما مضى كانوا يتلهفون على السعادة فيتلهفون على الأزمنة الماضية ويحسبون أن ماكان لن يكون ، وان الانسان قد ودع السعادة بغير أمل في رجعتها وعلى غير جدوى من السعي اليها ، لأن السعادة حظ الأجيال الغابرة التي تقدمت قبل ألوف السنين ، فليس من طبيعة الزمن أن يعيد هذه السعادة بعد فناء تلك الأجيال .

هذه خطوة كبيرة خطاها النوع الانساني في تقدير أحلامه وآماله ، وأول نتائجها أن يعمل للمستقبل وأن يقدر المطلوب منه للوصول اليه بتدبيره واجتهاده :

أما التطور الآخر ـ وهو لا يقل عن هذا التطور فى دلالته على حسن التقدير ـ فهو العلم بما يمكن فى المستقبل وما لايمكن ، والأخذ بالأسباب الواقعية لعلاج الاضرار وتحصيل المنافع ، على أساس من المقابلة الصحيحة بين الحاضر وما يؤدى اليه .

لقد كان الحالمون بالمدينة الفاضلة فى المستقبل يطلبون المستحيل أو ما يشبه المستحيل ، لأنهم كانوا يعلقون الرجاء بمدينة فاضلة لا نقص فيها ولا موجب للشكاية ، ولا محل فيها من ثم لطلب التغيير والتحسين ، وما كان هذا الانسان المتطور ليبلغ مبلغا من الحياة يمتنع فيه طلب التغيير والتحسين الا كان ذلك أشبه بالموت منه بالحياة .

فالمفكرون العصريون الذين يحلمون بالمستقبل الحسن ينظرون الى الممكنات والى أسبابها التى تتيسر اليوم وتجتمع عليها العزائم والنيات ، وكانهم يكتبون برنامجا صالحا للتطبيق والتنفيذ ويقسمون أبوابه ودرجاته ومواعيده للشروع فى تحقيقه على أيدى الخبراء العاملين .

وهذه خطوة أخرى خطاها بنو الانسان فى أحلامهم وآمالهم ، لا تقل عن سابقتها فى الدلالة على حسن التقدير .

والكتاب الذى نطالع حضراتكم فيه هذه الليلة يسمى بالانجليزية « سياحةفى المدن الفاضلة » وتسميح كاتبته السيدة مارى لويز برنيرى Berneri فعلا فى هذه المدن ، ولكنها سياحة مع الزمن وفى عالم الفكر والخيال ، ولعلها لم تدع فيلسوفا حالما بالسعادة فى احدى المدن الفاضلة الا حادثته وتحدثت عنه ولخصت حديثه تلخيصا يستغرب القارىء براعته ودقته ، مع صغر السن وكثرة القلاقل التى تعرضت لها الكاتبة النابغة ، فانها درست هذه المسائل المختلفة فى أصولها المطولة ، وكتبت فيها قبل وفاتها بسنوات ، بين الخامسة والعشرين والثلاثين .

تقول الكاتبة النابغة بحق ان افلاطون قد اقام مدينته الفاضلة فى عصر من عصور القلق والاضمحلال ، وان الانسان لا يعرف كيف يحلم ولا كيف يعمل فى أمثال هذه العصور .

أما المدن الفاضلة الحديثة التى عنيت السيدة بالكلام عنها فأهمها مدينه ولز Wells الانجليزى وبرداييف Berdiaev الروسى وهرتزكا Hertzka النمسوى ، وبعض المفكرين من الأمم المتعددة الذين تناولوا هذا الموضوع بروح التهكم والقنوط .

وخلاصة المدينة الفاضلة فى رأى ولز أنها لا تتحقق الا اذا عمت الكرة الأرضية بجميع أرجائها ، ولا يلزم أن تكون للكرة الأرضية جميعها حكومة واحدة تحقق البرامج المطلوبة ، بل يكفى أن تكون هناك مدن فاضلة كثيرة تربط بينها وحدة « فدرالية » .

ويجب فى رأى ولز أن ينهض بحكم المدينة العالمية أناس تربيهم الدولة من طفولتهم حيث لا تصل اليهم العقد النفسية المولدة من الخوف والخرافة ، وأن يتعلم الصغار فى مدرستهم مبادىء الحرية الخمسة ، وهى الاستقلال الفردى ، ورفع الحواجز عن الحركة والانتقال ، واطلاق المعرفة من القيود الا ما كان من قبيل صيانة الحرية الفردية من التطفل عليها بالاستطلاع والمراقبة .

هذه مبادىء ثلاثة مهمة ، رابعها تحريم الكذب واعتباره اقبح الجرائم والمنكرات ، وخامسها حق النقد والمناقشة فى جميع الشئون العامة .

وولز لا يمنع النقود فى مدينته العالمية كما منعها من قبله بناة المدن الفاضلة ، ولكنه يقول ان النقود نعمة وليست بنقمة ، وانما يساء استعمالها فتشقى من يأخذها ومن يعطيها فى النهاية ، وهكذا ينقلب كل شىء من الخير الى الشر مع سوء الاستعمال .

أما « هرتزكا » النمسوى فشرطه الأول لاقامة المدينة الفاضلة ان تكون الأرض ورؤوس الأموال وأدوات الصناعة والإنتاج ملكا للدولة ، وأن يسمح بالملكية الخاصة فى السكن لمن يشاء ، وأن توزع الأرزاق كما توزع الأرباح فى الشركة ، مع اختلاف الأجور حسب الكفاءة الفنية والعقلية ، وتقدير هذه الكفاءة بقيمة العمل ومبلغ الحاجة اليه .

اما بردابيف الروسى فاعتقاده أن المدينة الفاضلة آتية لا ريب فيهـا ، وان العالم الانسانى متجه اليها على غير قصد منه ، واننا ربما احتجنا الى المجهود لمنـــع بعض النظم التى ينتـــظر ان تســـود العالم ولا تحقق خير الانسانية ، ولكننا لا نحتاج الى مجهودخارق للمألوف ، فى سبيل « الطوبى» المنظورة أو المدينة الفاضلة ٠

وكل مفكر من هؤلاء الحالمين العصريين يشرح البرنامج الذى يدعو اليـه مفصلا مبوبا كما يفعل أصحاب البرامج الاجتماعية التى يعرضونها للتطبيق فى زمنها ، وهـذا هو الفـارق بين الحالمين العصريين والحالمين فى العصور الغابرة : أولئك يحلمون ويرجون ولا يقولون كيف يتحقق الرجاء ، وهؤلاء ـ أى الحالمون فى العصر الحاضر ـ يحلمون ويقدرون أحـــلامهم بمقدار الممكنات فى الواقع والممـكنات فى المستقبل ، مع اتخاذ الوسائل اليها ، وبيان تلك الوسائل لمن يقدر على اتخاذها ، وكيف يكون اقتـــداره على تنفيذها ٠

وليس من الميسور شرح هذه البرامج وبسط القول فى وسائلها الكثيرة فى مطالعة وجيزة ، الا اننا نقول عنها الـكثير حين نقول انهـــا قد انتقلت من الفروض والظنون الى البرامج الواقعية ، وانها اليوم أشـــبه ما تكون بتصميم البناء فى انتظار الأدوات وانتظار هدم البقايا المتداعية من أبنيـة العصور الأولى ، وبعضها ينهدم بغـير هادم ٠

نقول كثيرا عن المدن الفاضلة حـين نقول انها برامج معروضة للتنفيذ وليست أحلاما مرسلة فى الخيال ٠

ونقول أكثر من ذلك حـين نقول ان المـــدن الفاضلة فى عصرنا هذا لم تسلم كل السلامة من أخطاء الحالمين فيما مضى ، لأن المفكرين العصريـين لا يزالون يعتقدون أن المدن الفاضلة تحسم الشكوى وتعم الناس جميعا بالرضى فى كل وقت من أوقاتهم مدى الحياة ، أو تكاد ٠

والذى نؤمن به ولاشك فيه أن النوع الانسانى لا يختلف من الانسان الفرد فى آماله أو فى نظراته الى المستقبل ٠

يحسب الطفل أنه يسعد غدا أكبر السعادة اذا نما واصبح كأخيه الذى يذهب الى المدرسة ويقتنى أدواتها وكتبها ، ثم يبلغ مبلغ أخيه فيحسب أن السعادة تنتظره اذا انتهى من الدراسة وتولى العمل بنفسه لكسب المال والمتاع بالحياة ، ثم يعمل ويربح ولا يزال يحسب أن السعادة كلها فى الراحة واعتزال الأعمال ، ولا انقطاع عن الأمل فى سن من أسنان العمر ، ولا انقطاع عن الأمل كذلك فى دور من الأدوار التى يمر بها نوع الانسان ٠

وان توطين النفوس على هذه الحقيقة لكالوصول الى نصف الطريق ، لأنه يزيل منها كثيرا من الشكايات وييسر الرضى بكثير من المطالب التى لا ترضينا مع الشطط فى الآمال ، وحبذا الأمل البصير ، فانه مضاعفة للرضى وقصد فى الجهود ٠

وصايا برنارد شو للكتاب الناشئين

من النـادر أن توجد فى آداب العالم مجموعة من الرسائل كالمجموعة التى بـين أيدينا الآن ·

انها مجموعة من الرسائل كتبها برنارد شو الى الناقد المسرحى المشـهور جولدنج برايت ، وكان جولدنج برايت يومئذ فى مطلع شبابه ، فكتب الى الأديب الكبير يساله النصيحة لتسديد خطاه فى الصناعة الأدبية التى اختارها لنفسه ، وهى صناعة النقد المسرحى وكتابة المسرحيات وتحضيرها على العموم · ثم اتصلت الرسائل بين الأديبـين حتى أحاطت بموضوع المسرحيات من جملة نواحيه ، وظهرت هذه الأيام فى كتاب واحد تزيد صفحاته على مائتى صفحة من القطع المتوسط ، أشرف عـلى طبعـه وكتابة شروحه وتعليقاته أديب يعرف الأستاذ والتلميذ ، ويعرف المناسبات التى دعت الى تبادل الكثير من هذه الرسائل ·

يندر أن توجد فى الآداب العالمية مجموعة من رسائل الوصايات والنصائح كهذه المجموعة ، واندر من ذلك أن تكون مكتوبة الى تلميذ واحد ، وأندر من هذا وذاك أن يفلح هذا التلميذ بفضل ما استفاده من أستاذه وفضل الكفاية الشخصية والمثابرة على التعلم والتعليم ·

وتزداد هذه الندرة بفكاهة مشهورة بدأت بهـا معرفة التلميذ للأسـتاذ

يردد المترجمون لسيرة برنارد شو نادرة فكاهية من النوادر التى يسـتدل بها على سرعة البديهة وحضور الجواب ·

كان جمهور النظارة يصفق لمسرحية من مسرحيات برنارد شو ، وكان تصفيقا ـ بالاجمـاع ـ يتخلله نشوز واحد : وهو صفير شـديد من مقاعد السقف كما يسمونها فى المصطلحات الشعبية ، ثم الح النظارة فى طلب المؤلف فظهر المؤلف على المسرح وقوبل بعاصفة من الهتاف والتصفيق ،

وانتظر الصوت المخالف حتى هدأت الضجة أو كادت ، ثم اتجه الى برنارد شـــو بصيحة من صيحات السخرية والاستهزاء تشبه العواء ٠

لو كان برنارد شو حديث العهد بأمثال هذه المقاطعات لأسقط فى يده واضطرب وحيرته المفاجأة فلم يدر كيف يتخلص من هذا الموقف المهـين ، ولكنه كان من الخطباء الخبـراء بهـذه المواقف وماهو شر منها على منـابر الشوارع أو على المنـابر التى كانوا يســـمونها صناديق الصـــابون ، لأن الخطيب كان يتصدى للخطابة فى كل مكان وعلى كل مرتفع من الأرض ، أو على صندوق من صناديق الصابون ان لم يجد مرتفعا من الأرض يقف عليـــه ٠٠

فلم يتردد برنارد شـــــو حين فوجىء بتلك المقاطعة المزرية ، واتجـه الى مصدر الصـــوت وهو يقـــول فى لهجة مرحـة لا أثر فيها للســخط ولا للانتقـــام :

يا صاحبى انت على حق ، وأنا معـك فى السخرية والاستهزاء ، ولكن ما عساى أن أصنع ـ أنا وأنت ـ أمام هذا الاجماع الجاف من هؤلاء ؟ !

وضحك النظارة من المقاطع المشاغب ولم يضحكوا من المؤلف الخبـير بدواء المشاغبات ٠

وكان هذا المقاطع المشاغب ـ على القول المشهور ـ هو جولدنج برايت : ذلك التلميذ الذى بدأ تحياته لأستاذه بالسخرية والاستهزاء ٠

ان النصائح التى احتوتها الرسائل بسيطة سهلة ، وهـكذا تكـــون النصائح النافعة فى أكثر الأحوال ، لأنها مستمدة من التجربة التى يفهمها صاحبها ، ويفهـــم كيف يعبر عنها بالقـدر الذى يفيد وفى الوقت الذى يناسـبها ٠

لابد للنجاح فى كل عمل من الملـكة والرغبـة والمثابرة ، فلا فائدة من المثابرة والرغبة بغـير ملكة مستعدة للعمل ، ولا فائدة من الملكة المستعدة بغير مثابرة أو رغبة ، ولابد من الجمع بـين هذه « المؤهلات » لكل نجاح ٠

ولابد للناقد من بعض القدرة على الانتاج والتاليف ، فلا يكفى أن يتعلم النقد بالثناء أو القدح فى انتاج الآخرين ، بل عليه أن يتعلم النقد فى نفسه قبل أن يتعلمه فى سواه ٠

وأهم « المؤهلات » اللازمة للناقد اطلاع واف وقدرة على التحليل وقدرة على المقارنة والموازنة ، ثم يصيب أو يخطىء حتى يستقيم له الصواب ويتجنبه الخطأ جهد المستطاع فى أعمال الانسان ٠

ونصح الأستاذ لتلميذه بالاقدام على التاليف فتردد وخاف من النقد والسخرية ٠ فكتب اليه الأستاذ يقول : لو أننى نصحت لك بالتدرب على « الانزلاق » أو ركوب العجلات الصغيرة فوق الجليد لما خطر لك أن تعتذر بالخوف من الوقوع ٠ لأنك بالوقوع مرة بعد مرة تتدرب على اجتناب الوقوع ٠

وفهم التلميذ من هذه النصيحة أنه يستطيع أن يؤلف الكتاب ويرسله الى المطابع والمكتبات وهو ينوى أن يحرقه بعد حين ، فعاد الأستاذ ينصحه قائلا : « لا تؤلف كتابا وأنت على نية احراقه ، بل اكتبه وأنت تعتقد أنه جدير بالطبع والنشر وانه ناجح ومفيد ٠ ولعلك تؤلفه ولا تجد الناشر الذى يطبعه ٠ فأنت اذن خليق أن تستفيد شيئا من مزاولة التاليف وأن تعاود الكرة على أمل فى النجاح أكبر وأقوى ٠ وحذار أن تحرقه وان خجلت منه ، بل تحفظه فى مكان ثم تعود اليه ، فربما خجلت فى الثلاثين مما كنت تكتبه فى العشرين ، ولكنك متى بلغت الأربعين كسبت شيئا من احترام الأحلام فى سن الشباب ، وقد تتمكن يومئذ من نشره وترى أنه جدير بالاقبال ٠ من يدرى ؟ ان الشىء الوحيد الذى أنت على ثقة من درايته انك تكتب كل يوم وتكتب عاما بعد عام ، الى أن تملك زمام الأستاذية والاتقان »

ثم استطرد شو الى الالمام بشىء من سيرته فى أوائل حياته الأدبية فقال: « اما اعتقادك أننى كنت أقدر منك على تطبيق هذه النصائح فكل ما أقوله عنه ان الفرق بينى وبينك على ما يظهر أن أباك أيسر حالا من أبى وأدنى الى

المعيشة المنتظمة ، فاذا كنت انت مطمئنا الى السكن ولوازم المعيشة فانت ملك .. ولو أنك رايتني قبل اثنتى عشرة سنة لرأيت شخصا مشعثا كئيب الحال . لأنني قضيت بعد مقدمي الى لندن تسع سنوات لا أكسب شيئا مع كثرة ماكتبت ثم كسبت نحو مائة وخمسين جنيها في خمس سنوات . ثم كسبت ثلثمائة جنيه في بضع سنوات أخرى ثم ها أنا ذا أعود اليوم الى الرقم القديم : صفر ، فلا تجعل للمال كل الحساب » .

وأحق النصائح أن يسمع من برنارد شو نصيحتان لا تسمعان من كاتب في عصره كما تسمعان منه .

« أولاهما » نصيحة التحذير من دعاوى الصائحين باسم المدارس الجديدة والمذاهب المبتدعة وماشاكل هذه الأقاويل ، وهو لا يحذر تلميذه منها لأنها تناقضه وتنكر كفايته وتبخس عمله ، بل يحذر منها والفضل فيها منسوب اليه . قال في خطابه الأول : « كل هذه الآراء التى تعزوها الى عن مستر أرفنج ومستر ترى والمدرسة الجديدة - تسمح لى أن أقول لك أنها تسربت الى ذهنك من أقاويل الصحف التى كتبها أناس لا يعرفون الا القليل جدا من شئوني وآرائي - وما من شيء يضايقني كما يضايقني كل هذا اللغو الفارغ عن المدارس الجديدة والمسرحيات الجديدة وما شاكل هذا الهراء .. »

ونصيحة أخرى تسمع من برنارد شو قبل غيره هي نصيحته عن موضوع الرواية أو موضوع التأليف على التعميم ، ففي خطابه المؤرخ في العاشر من شهر يونيو سنة ست وتسعين (١٨٩٦) يقول : « ان رواياتي الأربع ليست كما يقال من المسرحيات الواقعية - أو الريالست - وانما هي من موضوعات الحياة على اتساعها ، تمثل الطبيعة الانسانية كما تتراءى لنا في جميع الأطوار الاقتصادية والاجتماعية »

ونقول ان هاتين النصيحتين تسمعان من برنارد شو قبل غيره لأنه كاتب مصلح يصدر في كتابته عن عقيدة اجتماعية وفكرة انسانية ، ولا يكتب من البرج العاجي كما يقال ، وهو على ذلك يرى أن تمثيل الطبيعة

الانسانية على حقيقتها وسيلة ناجعة من وسائل الاصلاح وعنـــاية تامة بالحالة الحاضرة فى كل زمن ٠ لأن العناية بكل حالة حاضرة دون فهـــم للطبيعة البشرية عبث فى غيره جدوى ٠

ومن فوائد هذه الرسائل أنها تشعبت فى بعض المناسبات حتى تطرقت الى موضوعات الأسرة والمعيشة البيتية والعلاقات بـين الآباء والأبناء ٠ فقد شكا التلميذ الى أستاذه ان أباه قد تزوج من غير امـه وانه ينفر من زوجة أبيه ويتهمها بتعمـد الاسـاءة اليـه ٠ فكتب اليه أستاذه يقول : « هذه احدى الحالات التى يقسـو فيها الأبناء على الآباء ٠ وأول ما ينبغى لك أن تخلى ذهنك من كل اعتراض على مركز هـذه الزوجـة فى البيت ولتكن كيف كانت من قبل، وكيف تكون الآن وليكن شعورك نحوها وشـعور اخوتك مايكون ـ فان حق أبيك فى الحيـاة السعيدة مع المرأة التى أحبها وتزوج منها ، أو حقه فى اسعادها ورعاية مصالحها ـ أمر لا نزاع فيه ٠ وانها ولا ريب لدورة من دورات الحوادث التى يؤسف لها ، ولكنها ليســت باساءة ولا جناية ٠ وكلما نظرت اليها بعـين السخط لم يكن من جـراء ذلك الا أن تتـــورط في الأضرار التى لا تنفـــع ولا تحسن عقبـــاها ٠ اذ لا سبيل الى الغاء هذا الزواج ولو كان امن المطلوب أو المستحب أن يلغى ، وانك لا تجنى من تكدير العلاقة بين أبيك وأبنائه الا أن تلجئه الى طلب العطف من تلك الزوجـــــة ، وقد تلجئه الى تمييزها بنصيب من الميراث بعد وفـــاته » ٠٠

وهذه نصيحة حسنة فى مثل هذه القضية : قضية الأبناء الكبار مـع زوجة الأب فى معيشة واحدة ٠ فانهم قد يأمنون قســـوة الضرائر ويخيفون الزوجة المحنقة من الاسترسال فى أذاهـا ٠٠ ولكننى أحسـب أن الأب الذى يعهد بأطفاله الصغار الى ضرة غريبة عنهم يسىء اليهم اساءة بالغة لا حق له فيها ، وان حقه فى الســـعادة لا يعفيه من اسعاد أبنائه الصـــغار ما دام مسـئولا عنهم وماداموا عاجزين عن حمـاية أنفسهم ، والظاهـر من رسائل الأستاذ والتلميذ أن النصيحة فى هـــذه القضية قـــد أتت بالفائدة المرجوة منها ، لأن التلميذ قد سكت عنها ولم يذكـرها شـارح الرسائل فى تعقيبه عليها ٠

وآخر مانذكره من هذه النصائح ـ وان لم تكن آخرها في الرسائل ـ أن برناردشو قد أشار في بعضها الى التفرقة بين الكتابة الصحفية الحسنة وبين الكتابة الأدبية المختارة ، فقد كان تلميذه يقترح عليه أن يجمع الفصول والملاحظات التي كان ينشرها في نقد التمثيل أو التمثيليات الموسيقية ، فلم يوافق برنارد شو على مقترحه وكتب اليه يفرق بين موضوعات الصحافة الناجحة وموضوعات الأدب الباقية ، وخلاصة هذه التفرقة ان الكتابة الصحفية أنجح ما تكون اذا ارتبطت بساعتها ومناسبتها وأن موضوعات الأدب أنجح ماتكون اذا بقيت فيها بقية صالحة بعد المناسبات الموقوتة بحوادثها وشخوصها ، وقد تجمع الكتابة بين المزيتين في الأحوال النادرة فتنجح في حينها وتنجح في كل حين • الا أنها أحوال نادرة لا يقاس عليها •

نقول : ان هذه الموضوعات الصحفية قد نشرت بعد وفاة برنارد شو فاقبل عليها قراؤه كأنها بنت ساعتها • فهل أصاب التلميذ يا ترى في اقتراح نشرها أو كان الصواب في جانب الأستاذ حين أبى أن ينشرها مع استفادته من نشرها ؟

هنا يبدو أن الصواب مرهون بأوقاته ودواعيه • فبعد وفاة برنارد شو كان الاقبال على آثاره لقيمته هو لا لقيمتها ، وكان القراء يطلعون عليها ولو أيقنوا سخافتها • لأن الاطلاع على سخافة النابغة قبل نجاحه معرفة نافعة للناشئين وللدارسين

وهكذا يختلف الصواب ، باختلاف الأوقات والأسباب •

الكتب المحبوبة في القرن العشرين

الكتب المحبوبة فى القرن العشرين اسم كتاب ظهر أخيرا باللغة الانجليزية ، اشترك فى تأليفه خمسون كاتبا وتكلم كل منهم عن كتاب ·

وتبدو دقة التأليف من عنوان المؤلف ·

فالنقاد هنا لا يعرضون لنا أنفع الكتب ولا أجمل الكتب ولا أعظم الكتب ، وانما يعرضون لنا الكتب المحبوبة التى أقبل عليها قراء الانجليزية ، فكان لها نصيبها من العظمة بمقدار هذا الاقبال ·

والفارق كبير بين الكتاب المحبوب والكتاب النافع · فان الكتاب المحبوب قد يضر قارئه كما يضر الحب أصحابه فى كثير من الأحيان ، ولا يندر أن يكون الكتاب النافع غير محبوب ولا مرغوب فيه باختيار القارىء ، ولكنه يكره نفسه على مطالعته لاضطراره اليه ·

والفارق كذلك كبير بين الكتاب المحبوب والكتاب الجميل ، فان الحب قد يخدع البصر والبصيرة حتى يرى الجمال فى غير الجميل ·

والفارق أكبر من ذلك بين الكتاب العظيم والكتاب المحبوب ، لأن الكتاب العظيم قد ينبه قارئه الى عيوبه ويحفزه الى طلب الكمال فيشق عليه ويجهده ، وقلما يحب الناس الا ما يرضيهم عن أنفسهم ويريحهم من عناء السعى والنضال ·

لهذا كان الكتاب دقيقا فى عنوانه ، دقيقا فى نقده ، فلم يحدثنا الا عن الكتب المحبوبة فى القرن العشرين ، ولم يشمل كتب العالم جميعا لأنه لم يحاول ذلك ، ولكنه اكتفى بالكلام عن الكتب الانجليزية ، فجاءت مع هذا ــ دليلا على ما عداها من اللغات الغربية ·

جميع هذه الكتب الخمسين عاطفية ، سواء كانت من القصص أو الدواوين الشعرية ، وسواء كانت القصص فيها على منهج الاصلاح ، أو على منهج الوصف ، أو على منهج الذوق وحسن الأداء ٠

والدواوين الشعرية التي ذكرت في هذه المجموعة ثلاثة ، ولكن القصص تحتوى من الشعر ما يسلكها في عداد القصيد المنثور ٠

وليس من غرضنا في هذا الحديث أن نلخص هذه الكتب جميعا ، فان النقاد الذين كتبوا عنها يلخصونها ويعتذرون من ضيق المجال ، فليس في وسع الحديث الموجز أن يزيدها تلخيصا على تلخيص ٠

ولكننا ندل عليها تارة بشذرات من أقوال مؤلفيها ، وتارة بالاشارة الى موضوعها ، وتارة بالوجهة التي تنتهي اليها على اختلاف الأقوال والموضوعات ٠

ونبدأ بالشعراء الثلاثة وهم ساندبرج Sandburg وأوجدن ناش Ogden Nash وروبرت فروست Frost

فتعريف الشعر عند ساندبرج بأسلوبه الفكاهي : « انه ملعقة من ضوء القمر غابت في جوف الضباب الذهبي » أو أنه « كتابة طيفية تنبئنا عن أقواس قزح كيف تطلع وكيف تذهب » أو أنه « تركيبة من الرياحين والبسكويت ٠٠ »

وقد احتفل في الأيام الأخيرة ببلوغ الشاعر الثامنة والسبعين ، وسئل عن خلاصة فلسفته في الحياة فقال انها تنحصر في أربعة أشياء :

« أولا » أن أكون خارج السجن

و « ثانيا » أن آكل وأنام بانتظام

و « ثالثا » أن أجد من يطبع لي كتبي في بلاد حرة لأناس أحرار ٠

و « رابعا » قليل من الحب داخل المنزل ومن الاحترام خارج الباب ٠

ونعتقد نحن أن قراءة ديوان كامل من نظم هذا الشاعر لا تعطينا صـــورة له أصدق من صورته في هذه الكلمات ٠٠

أما الشاعر الثاني ـ أوجدن ناش ـ فهو أقرب ما يكون الى المنظومات التي تعرف عندنا بالأزجال٠

فهو بسيط يبسط الأمور ولو كانت من المشكلات المعقدة ، ثم ينظمها في مقطوعات يحفظها من يشاء ويغنيها من يشاء ٠

يقول للآباء الذين تروعهم نزوات أبنائهم وبناتهم : « قليل من مسحوق الطلق ينفع في كل حين » وهو يريد بذلك مداواة « الالتهاب » بشيء من التلطيف والتهدئة كما تداوى البثور وحرارة الصيف

ويقول للسابحين في الخيال : « بنات البار أصدق من عرائس البحـــار » ٠٠ ويقول للمستميتين في حرب الطبقات : « أصحاب المصارف والبنوك أناس كغيرهم من الناس ٠ وكل ما هنالك أنهم أغنى »

ونقيس على ذلك حلوله لجميع المشكلات ٠٠

أما أكبر هؤلاء الشعراء الثلاثة فهو روبرت فروست الذي بلـغ الثمانين منذ عامين وهنأه مجلس الأمة في الولايات المتحـدة يوم عيد ميــلاده الثمانين ، وشـعره يخالف شعر صـــاحبيه في كل شيء ، يخالفهما في لفظه ومعناه وتعريفه للقصيد ، ويقول في هذا التعريف « ان القصيدة تبــدأ بنحنحة في الحلق ، وبشيء من حنين الاغتراب أو حنـــين الأحباب ، ثم تنتهي بالبحث عن عبارة تفصح عنها ، فاذا تمت القصيدة فهي عاطفـة وجدت فكرتها ، وفكرة وجدت عبارتها »

وروبرت فروست على هذا يهزل في البداية ويجد في النهاية ، ويعلو كثيرا في سبحاته الخيالية ، ولكنه يركب الى الســحاب مطية من الأرض القريبة ، يلمسها الغادي والرائح في كل سبيل ٠

والقصاصون كهؤلاء الشعراء تدل عليهم كلمات أو تدل عليهم خلاصـــــة من الموضوعات ٠

فالكاتب همنجواى يقول عن الحرب بين الجد والفكاهة : « اذا كان الناس يدخلون دنياهم هذه بكل تلك المقادير الكبيرة من الشجاعة فماذا تصنع الدنيا بهم الا أن تتخلص منهم بالقضاء عليهم ؟·· على أنها تميت الوديع اللطيف كما تميت الطيب الكريم وتميت الشجاع المقدام · فان لم يكن الانسان من هؤلاء فليكن على يقين أنها تميته أيضا ·· ولكن بغير داع الى العجلة والاهتمام »

وردیارد كبلنج من الأدباء الشعراء الذين ظفرت كتبهم بالاقبال من القراء · وحديثه الأكبر عن السباع والأطفال ، لأنه كهؤلاء وهؤلاء جامع الحلو والخيال ، ويخرج من الدنيا بعبارات شائعة أضافها الى لغة الأحاديث اليومية · لأنه هو الذى قال : « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقى التوأمان » ·· وهو الذىقال : « لكيلا ننسى »فأصبحت من العناوين المعادةعلى أقلام الكتاب ، وهو الذى تحدث عن حمل الرجل الأبيض ، وهو شاعر الاستعمار الذى عرف كيف يموت فى أوانه ، لأنه فارق الدنيا والاستعمار فى الاحتضـــار ·

ويقـــال فى الكتاب عن الروائى ابتـــون سنكلر Upton Sinclair ان روايته المسماة بالغابة سلاح لاكتاب ولا أثر من الآثار الفنيـــة ، وقد أصـــاب الناقد فى وصفه للكتاب ولمؤلفـــه حيثما كتب ، لأنه كان فـــرقة مقاتلة يشن الغـــارة وحده على الجشع والطمع والفساد ، وقد حـــاربه الناشرون وحاربته الصحف والسلطات فى أيام نشأته ، ولكنه لم ينهـــزم ولم يتراجع ، وبلـغ من عناده أنه كان يحمل كتبه على عربة من عربات اليـــد ويسرح بها فى المدينة ، وينادى عليها كما ينادى الباعة الجوالون على الخضر والفاكهة وسلع الطريق ·

ومن الكتب الخمسين التى لقيت من القراء اقبـالا متتابعا قليل النظـير قصة « مدام ماركو بولو » الرحالة المشهور ·

فالسيد « ماركو بولو » هذا رحالة من أبناء البندقية فى القرن الرابع عشر ، ساح فى بلاد الشرق سنوات ثم كتب رحلته وهو محبوس ، وجاءت رحلته هذه كأنها قصة آدم بغير حواء ، فرثى له الشاعر الايرلندى دون بيرن Byrne وخلق له من خياله حواء توافقه وتوافق أعاجيبه وأكاذيبه ، وأمعن فى صدق الخيال حتى خطر لبعض القراء أن القصة من أخبار التاريخ المهجور ، وعادوا يقرأون الرحلة العتيقة كأنها كانت ناقصة من نسخ الخيال ، فتمت فى عالم الواقع بما لفقته لها ـ أو وفقته ـ قريحة الشاعر الأريب .

وبعض الروايات التى دخلت فى عداد هذه الكتب الخمسين قد وصلت الى الشرق على اللوحة البيضاء ، وبعضها قد تسرب الى القراء من طريق الاقتباس والادعاء ، ومنها مجموعة من النوادر الصغيرة تصلح للعرض فى الصور المتحركة ، ومنها روايات يختلط فيها الواقع والتاريخ والاختراع .

ومن التعليقات النافعة على هذه المختارات أنها تصحح الخطأ فى مسألتين من المسائل التى يكثر فيها اضطراب الآراء وتختل فيها موازين التقدير .

المسألة الأولى أن الاجادة فى الآثار الأدبية لا تقاس بأرقام السنين ولا بترتيب الحداثة فى تواريخ الظهور . فهذه الكتب الخمسون قد ظهر ثلاثة أرباعها فى أوائل القرن العشرين ولم يظهر منها غير الربع فى السنوات الأخيرة . وبعض المؤلفين أجاد فى كتبه الأولى ولم يجد فى كتبه التالية . وهذه المسألة من الوضوح بحيث لا تحتاج الى اسهاب ولا اطناب فى التوضيح ، فلو كانت المزية مرهونة بأرقام السنين لكانت ملكة النقد والتقدير من أهون الملكات ، ولاستطاع الطفل الذى يحسن قراءة الأرقام أن يقابل بين خمسين كتابا ويفاضل بينها مفاضلة لا تقبل الخلاف ، لأن الفرق ظاهر بين عشرين وثلاثين وأربعين وخمسين .

والمسألة الثانية التى تستفاد من هذه المختارات أن الأساليب وأنواع التأليف تجتمع فى كل آونة ولا تنحصر الاجادة فى أسلوب منها دون

أسلوب · فمن هذه الروايات رواية الإصلاح الاجتماعي ، ورواية الوصف الفني ، ورواية الرموز ورواية الدعاية ورواية الخيال ، وكلها من الكتب المحبوبة بشهادة الحساب وشهادة السماع ·

وأهم من هاتين المسألتين انالكتب المختارة تصور لنا روح العصر كله في البلاد الغربية ، وتصيب في هذا التصوير حيث تخطىء جميع المقاييس ولاسيما مقاييس السياسة والغرض المقصود ·

ومن صواب هـذا التصوير أنه لا يعطينـا صورة واحدة بل صورتين متناقضتين ، وهكذا ينبغي أن تكون كل صورة صحيحة لعصر من العصور ، وبخاصة هذا العصر الحديث بين مفتـرق الطرق ومختلف التيـارات · فالناس أمام الواقع فريقان متقابلان : أحدهما يميل الى التسليم والآخر يميل الى المقاومة ، ومنهم من يتخـذ له شعارا قول القائل : « اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون » ·· ومنهم من يأبى هذا الشعار ولا يرضى بمـا هو كائن ، حتى يكون ما أراد ·

وكل من هذين المزاجين المتقابلـين متمثـل على أتمـه وأقواه في هذه الكتب الخمسـين ·

فمنها التي أحبها القراء لأنها تعترف لهم بالواقع ولا تكابر فيـه أو تصطنع المغالطة والتزويق ، وعلاجها لمشكلة الحياة أن تروض النفس عـلى عـرفانها كما هي في حقيقتهـا ، وان تكن على خطأ في ادراك هذه الحقيقـة

ومن هذه الكتب الخمسـين طائفة أحبها القـراء لأنها تفتأ في حيرتهـا تدق الأبواب المجهولة بابا بعد باب ، ولا تستريح الى التسليم بالواقـع لأن المثابرة على البحث أحب اليها من التسليم ·

ولا يفوتنا ــ ونحن نفرق بين هذين المـزاجين ــ أن نذكر أنهما قـد يتلاقيان في النفس الواحدة ولا ينفصلان كل الانفصال في جميع الأحوال ، والنفس السعيدة هي التي تستريح يوما الى التسليم ويوما الى الجهـاد ، ولعل الكاتب السعيد هو الذي يسعد بالحب من هؤلاء وهؤلاء ·

فهـــرس

Bibliotheca Alexandrina
0602516

فهـــــرس

صفحة

Bibliotheca Alexandrina
06002516